كَيفَ تكُونُ خَطيبًا

تـأليــف

الشيَخ عبَد الرحمَن خلَيف

مركز الدراسات الإسلاميّة

بالقيروان

كيف تكون خطيباً

كيف تكون خطيبا

تأليف
الشيخ عبد الرحمن خليف

مركز الدراسات الإسلامية
بالقيروان

الطبعة الأولى

1994

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الأستاذ الدّكتور أَبُو لُبَابَةَ حسين
مدير مركز الدّراسات الإسْلامِيّة بالقيْروان

لقد حضّ الاسلام على الاجتماع والتآخي والتحابب وحذّر من الفُرقة والتَّنَافُر والتَّنَاحُر، فقال تعالى آمراً بالوَحْدَةِ ناهياً عن الفُرقة: ﴿**واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران 103] وأكّد رسولُ الله ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من دعوة الى هذا الخير فقال: (عليكم بالجماعة وَإيّاكُم والفُرقة) وقال: (الجماعة رحمةٌ والفُرقة عذاب) كما حذّر عليه الصلاة والسلام دُعَاةَ الفُرقة والتَّشَرْذُم بأنّهم يُعرِّضُونَ أَنْفُسَهُم لخطر الخروج من نعمة الإسلام فقال: (مَنْ فارق الجماعة شبْراً خلَع رِبْقَةَ الإسْلاَم مِنْ عُنُقِه)، وقال: (من فارق الجماعة مات ميتة الجاهليّة).

وكتاب الله وسنّة الرّسول ﷺ حافلان بكلّ ما يرسّخ روح الجماعة في ضمير المسلم ووجدانه حتى غدت هذه الرّوح لا تفارق المؤمن الصّادق حتّى في خُلوته فإذا ما نَاجَى رَبَّهُ ناجاهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ وإذا دَعَاهُ دَعَاهُ بِصِيغَةِ الجمع ﴿**إيَّاكَ نعبُد وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ، إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة 5-6].

وخِدْمَةً لِلْجَمَاعةِ حَضَّ الإسلامُ على صلاة الْجَماعة وضَاعَفَ عليها الأَجْر، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (فضل صلاة الْجَمْع على صَلاَةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وعِشْرُونَ دَرَجَةً وتَجْتَمِعُ مَلاَئِكَةُ اللَّيْل وَمَلاَئِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ) (تفسير ـ الإسراء ـ باب إنّ

قرآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً).

بل فقد فرض الإسْلاَمُ على المُسْلِمِينَ الاِجْتِماعَ مَرَّةً فِي الأُسْبُوعِ لِصَلاَةِ الْجُمُعَةِ كَما شرَعَ لهم الاِجْتِماعَ فِي مُنَاسَبَاتٍ عَدِيدَةٍ أُخْرَى كَصَلاَةِ الْعِيدَيْنِ وَالاِسْتِسْقَاءِ والْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ وَالْجَنَازَةِ.

وَأَغْلَبُ اجْتِماعَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَخَلَّلُهَا خُطبةٌ أَوْ خُطْبَتَانِ تَتِمُّ فِيهِمَا عَمَلِيَّةُ الإِعْلاَمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّوْعِيَةِ كَمَا تَتَنَاوَلاَنِ الأَحْدَاثَ الْمُسْتَجِدَّةَ الَّتِي تَمَسُّ حَيَاةَ الْمُسْلِمِ على اخْتِلاَفِ الأَصْعِدَةِ.

ورغم تَقَدُّمِ وَسَائِلِ الإِعْلاَمِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَتَطَوُّرِ أَسَالِيبِهِ فَإِنَّ خُطَبَ مَنَابِرِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ مَا تَزَالُ تَحْتَلُّ مَكَانَةً مُتَمَيِّزَةً فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَتَبْقَى تُؤَدِّي الدَّوْرَ الْمَطْلُوبَ منها والمؤثّر متى توفّر الإمامُ الْكُفْءُ وَالْخَطِيبُ الْعَالِمُ الْمُؤْمِنُ، وَهُوَ مَا يُفَسِّرُ عِنَايَةَ الْبِلاَدِ الإِسْلاَمِيَّةِ عَلَى اخْتِلاَفِ مَشَارِبِهَا بِخُطَبِ الْجُمُعَةِ وَالْخُطَبَاءِ لِتَرْشِيدِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ كَيْ يَبْقَى مِنْبَرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُنْبُوعاً لِلْخَيْرِ يُبَلِّغُ الْهِدَايَةَ وَيَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

وبناءً على أَهَمِّيَّةِ الْخُطْبَة ودورها الرّائد في التّوعية والتَّوْجِيهِ، وبناءً على خَطَرِ الخطيب ودوره الْبَارز في نشر الْهِدَاية باعْتِبَارِهِ مُبَلِّغاً عَنِ الله ورسُوله ﷺ كتب الشَّيْخُ «عبد الرّحمان خليف» كتابه «كيف تكون خطيباً» وقد استمدّ من تجربته الطّويلة والنَّاجحَةِ في إِمَامَةِ جامعِ عُقبة بن نافع بالقيروان الْكَثِيرَ مِمَّا ضَمَّنَهُ كِتَابَهُ من فوائدَ واقتراحاتٍ بَنَّاءَةٍ لِلنُّهُوضِ بخطبة الجمعة وَلإِعْدَادِ الْخَطِيبِ الْكُفْءِ.

وقد مَحَّضَ الْقِسْمَ الثَّانِيَ من كتابه لعرض نماذج من عُيون الْخُطَبِ لِخُطَبَاءَ أَفْذَاذٍ قَدِيماً وحَدِيثاً وقَدْ أورد في مُقدّمتها ثلاثَ خُطب لِسَيِّد الْبُلَغاء

وزعيم الْفُصَحـاء وإمام الْهُدَاةِ الْمُهْتَـدِينَ مُحَمّد رسـولِ اللهِ ﷺ، لتكون مِثَـالاً يَحْتَـذِيه أُولَئِكَ الَّـذِينَ يُرِيـدُونَ أَنْ يَرْتَقُـوا بِأَنْفُسِهِمْ وخُطَبِهِمْ إِلَى دائرةِ الإِفَـادَةِ والتَّأْثِيرِ.

ومركزُ الدّراسات الإسلاميّة بالقيروان في نطاق مهامّه الّتي حدّدها الأَمْرُ الرِّئَاسِيُّ عدد 578 لسنة 1990 والّتي منها (الإسْهامُ في دعم الْبحث العلميّ في ميدان الدّراسات الإسلامية، وتوفير المعلومات الموضوعيّة الّتي تساعد على فهم الإسْلام) يَسُرُّهُ أن يُقدّم لقرّاء الْعَرَبِيَّةِ الأَفَـاضِلِ كتابَهُ الثّالث «كيف تكون خطيبـاً»، راجِياً من الْمَولى الْقـدير أن ينفع اللهُ بـه طُلاَّبَ الْعِلم، وأن يكـون لِلأَيِمّـة الخطباء الشُّبّـان دليلاً يُعينهم على تحقيق الْمُبْتَغَى مِنْ صِـدْقِ الْحُضُورِ وَبَلِيغ التَّأْثِيرِ وَعَظِيمِ النَّفْعِ وَالإِفَـادَةِ، وأَنْ يَكُـونَ لِغَيْرِهِمْ من الْقُـرَّاءِ مَـرْجِعـاً يَسْتَنِيرُونَ به في معرفة بعض معالم الْخُطْبَةِ الْمِنْبَرِيَّةِ الْهَادِفَة.

والله من وراء القصد. وهو الهادي الى سواء السّبيل.

أَبُو لُبَابَةَ حسِين

القيروان في: 13/ 5/ 1993



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله المباركات على خاتم النبيين، وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد فمن عجيب شأن الانسان أنه يغالبه الابتسام إذا استمع إلى قهقهة الضاحكين وتغرورق عيناه أو يجهش باكياً إذا استمع إلى من يبكي بحرقة ومرارة، وقد يتثاءب بحضرته بعض الناس فيتثاءب معه من حيث لا يشعر.

ولا تتخلف استجابة الانسان لمثل هذه المؤثرات إلا لمانع يلمّ به في ذلك الحين.

هكذا أوجد الله الانسان، قابلاً للتأثر بغيره، وللتأثير في غيره.

واعتباراً لهذه الحقيقة حذّرت الشريعة من التعرض إلى بعض المؤثرات، حتى لا تستدرج الانسان إلى الخطيئة، فقد قررت غضّ البصر عما لا يحلّ، ونهت عن الاستماع إلى ما يحرم، ودعت إلى اجتناب ما يشتبه من الأمور.

هذه نماذج من الحقائق التي قررها الاسلام، حماية للإنسان من التورط في الخطيئة لأنه مخلوق متأثر بطبعه.

أما من حيث إنه مؤثر فقد شرع الله له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لينقذ غيره مما لا يليق بكرامة الانسان. فإذا قام — عن اذن ربه — بهذه المهمة كان له حظ من التأثير عظيم.

ومن هـذه اللفتـة السريعة لأنماط قليلـة من أحكـام الاسـلام، يتبين أنها ما شرعت إلاّ ملائمة لطبيعة الانسان من حيث إنه متأثر، ومؤثر.

ولما اكتشف الانسـان من ذاته هـذه الحقيقة أخـذ يستغلّها استغـلالاً هائلاً، فنـراه قد نجـح في تطوير وسـائل التأثير بصـورة مذهلـة، كما نرى نشاطه في هذا المجال قد تميّز بظاهرتين عجيبتين:

الظـاهـرة الأولى تتمثل فيما ابتـدع من وسـائل التأثير، وحـرصـه المتواصل على تنويعها، وتوسيع آفاقها.

لقد طوّر استغـلاله للطباعة تطويـراً ما عهدت البشرية مثلـه في تاريخها الطويل، وتدفّق نشاط المطابع، حتى كادت ثواني الزمان تعجز عن ملاحقتها وهي تـدأب ليـلاً ونهاراً، لإخـراج مـا لا يحصى من الاعـلانـات، وشتى أنواع الكتب والصحف والمجـلات، ويكاد ينحصر ذلك النشـاط الرهيب في التأثير على الانسان.

أمـا الاذاعـات فهي تبث على جميـع الموجـات، ولا تنقطع إلا لتستأنف البثّ المغري بمختلف ألوان الاغراء.

وظل مُصَوِّروُ الأفلام يتسابقون تسابقاً مضنياً، ويتهالك بعضهم في كل مهلك إذا كان ذلك يساعده على أي قدر من التأثير.

ثم جـاء التلفاز فـاستأثر بـالحظ الأوفـر من عناصر التأثير، إذ كـان يجمع بين الكلمـة المقـروءة، وبين الصـورة والصـوت، فـاحتـوى على خصـائص كل ما سـواه، وتفـوّق على غيره لما توفّـر لـديـه من إمكانـات عجيبة، فبات يؤثر أعظم التأثير، من غير أن يكلف أي مجهود عظيم.

كل هـذه الوسـائل التي اهتـدى إليهـا الانسان، ليس لها من هـدف إلا الانسان.

إنها تتنـافس في الحصـول على أكبر قسـط من التأثير عليـه، ولم تترك أي مـوطن لم تطـوقـه فيـه، فهي تـلاحقه في مـركـز عملـه، وتحيط بـه في

الشـارع، وفي النـادي والبيت، وفي القطـار والطـائرة، وفي المستـوصف والمستشفى، وفي المدينة والبادية . . .

وما مـن شك في أن تلك الوسـائل أصبح لها أثر بعيـد المدى في حياة الانسان المعـاصر، وظل تأثيرهـا عليه واضحـاً، ولو أنـه على تفاوت بين النـاس، وذلك لتمتعها بسعـة الآفاق، وسرعـة الانتشار، ولتمكنهـا من ملاحقة الانسان أينما يكن الانسان .

أما الظاهرة الثانية فتتمثل في استخدام تلك الوسائل استخداماً ضاراً بالانسـان، فكم من جهة استغلتها فـزخرفت بها الضلال ليبـدو في صورة الحق، وكم من جهـة زيّنت بها البـاطل لتقـدمـه كمثـال أمين للهـدى والصـواب، وكم من جهـة أثـارت بها فتنـاً كـانت أشـدّ من القتل، وكم تسرَّب من جميع خـدعها الماكـرة مـا قوّض أسس الفضـائل ودمّر عنـاصر النبل والمروءة في الانسان .

لقـد سقطت دنيـانـا الآن في خضم متـلاطم من وسـائل الاعـلام، وتقـاذفتها تيـارات صاخبـة بـاتت كلها تتصـارع على فـريسة واحـدة هي الانسان .

وفي هـذا الصخب المذهل يكاد الانسـان المسلم لا يسمع إلا صوتـاً واحـداً يعلـو بـالحق لكنه لا يـرتفع مـرة في الأسبـوع إلا ويصمت صمتـاً تاماً حتى تتم دورة الأسبوع . ذلك هو صوت خطيب الجمعة .

مـا عسى أن يكـون لهذا الصـوت من قـوّة لإنقـاذ الغـرقى في محيط من المؤثرات الغامرة والتيارات الخدّاعـة الماكرة، وهل تضيء الشموع آفاق الصحارى في ليل حالك الظلام؟

ومن المؤسف أن هذه الشمـوع ـ مع أخذهـا في التكاثر ـ قـد تضاءل ضوؤهـا، وضعف الاهتداء بنورهـا، فتبدّد السـائرون في ظلمات المسالك على غير اهتداء .

ولقد أصبح من الحقائق الواضحة أن خطبة الجمعة ضعف أثرها في معظم المجتمعات الاسلامية، ويبدو أن لذلك الضعف أكثر من سبب، وأعظم تلك الأسباب خطورة هذه الأربعة:

1 ـ أن خطابة الجمعة نراها تسند لغير الأكفاء في كثير من بلاد المسلمين.

2 ـ أن بعض ذوي الكفاءة إذا اسندت إليهم هذه المهمة لا يُولونها ما تستحقه من الاهتمام، فكأنها في اعتبارهم صورة مألوفة لعمل رتيب.

أما أن تستجيب لما تدعو إليه أوضاع المسلمين فهذا أمر قلّما يعتبرونه من مهمات الخطيب.

3 ـ أن خطبة الجمعة ـ ولو بثتها الاذاعة ـ لا ينصت إليها اليوم بشيء من الاهتمام إلا المصلون من المنتسبين إلى الاسلام.

4 ـ أن ما تَبْنيه يدُ الخطيب الواحدة في دقائق من الأسبوع يهدمه ما لا يحصى من الأيدَي المدمرة، والتي تنشط بلا انقطاع آناء الليل، وأطراف النهار.

من كل ما تقدم يتبين أن الأمر أصبح على جانب من الخطر عظيم، وفي هذه الأجواء العصيبة تراءى لي.

1 ـ أن أستنجد بجميع من ولاّهم الله تدبير شؤون المسلمين لمجابهة هذه الأخطار. ولعل النهوض بخطبة الجمعة يكون أول خطوة ثابتة في الطريق السليم، فإن الاسلام ما أوجبها إلا لتؤدي أعظم المهام في حياة المسلمين[1].

---

(1) اختصر هنا ما اراه مساعداً على النهوض بالخطابة الدينية فى نقط سبع، ولو أن بعضها لا تتحقق نتائجها في زمن قريب، وهي:

1 ـ تطوير المؤسسات القائمة بتخريج الخطباء والدعاة.

2 ـ تحوير برامج الدراسة في هذه المؤسسات، حتى يدرج فيها علم النفس التربوي، ومبادىء =

2 ـ أن أساهم في تنشيط مهمة المسجد بهذا الكتيّب، راجياً أن يساعد من يكون في حاجة إلى المساعدة من الأخوان الخطباء، حتى تتظافر الجهود لإحياء دور المنبر في صيانة صرح المجتمع المسلم.

والله ولي المؤمنين، وبيده الهداية والتوفيق.

القيروان في 27 محرم 1404هـ الموافق 1/ 11/ 1983م

عبد الرحمن خليف

أشهر المعتقدات لدى غير المسلمين، وأشهر المذاهب الاقتصادية، وتاريخ الاستعمار، وحركات الاستشراق والتنصير والصهيونية والماسونية. كل ذلك مضاف إلى علوم القرآن والسنة والعقيدة والفقه والسيرة، والخطابة وأصول الدعوة وتوزعها لجنة فنية على سنوات الدراسة.

3 ـ انتداب الخطباء الأكفاء في المستقبل دون سواهم.

4 ـ تعويض العاجزين وشبههم بخطباء أكفاء.

5 ـ الاكثار من فتح دورات تدريبية لمن هم في حاجة إلى المزيد من التدريب.

6 ـ ترغيب الشباب أن يتخرجوا في شعبة الخطابة والدعوة، بمكافآت جيدة ليتفرغوا لها باهتمام.

7 ـ إيجاد مصلحة رشيدة تقوم بالمراقبة والمساعدة والتوجيه لخطباء الجمعة بلا انقطاع.

مقدمة الطبعة الثانية

في عام 1406 تولّت رابطة العالم الاسلامي طبع الكتاب لأوّل مرّة في إخراج جيّد، وورق صقيل، واهتمام رائع بتجنّب أيّ نوع من الأخطاء المطبعية، فابتهجت بكلّ ذلك حامداً الله على ما بذلت الرابطة من جهد في تلك الطبعة الأنيقة، راجياً أن يتولاها الله بالجزاء الأوفى.

ثمّ تولت الرابطة توزيعه في عالم المسلمين، حتى علمت أنّ التوزيع شمل (أستراليا) وغيرها من مواطن الأقليات الاسلامية، فتضاعف ابتهاجي بسعة مجال التوزيع، وتأكد لي أنّ ذلك تقدير من الرابطة لما للخطابة من أثر عظيم في حياة المسلمين.

نفدت الطبعة الأولى للكتاب فاتّصل بي من شمال افريقيا من رغبوا في إعادة طبعه وتكرر اتّصالهم بي في هذا الشأن، فاستأذنت من الرابطة أن نطبعه المرّة الثانية في تونس، فوردني اذنها بتحقيق تلك الرغبة، والله سبحانه يشكر لها كلّ ذلك.

كان مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان قد تابع المراحل التي مرّ بها الكتاب، فأراد ــ مشكوراً ــ أن يتولى الطبعة الثانية، وأن يدرجها في سلسلة مطبوعاته، فحمدت له ما أراد.

إنّ هذه الطبعة تمتاز باشتمالها على إضافات قليلة رأيت أنّها متأكدة، ومن بينها تحديد الوقت الذي تستغرقه خطبة الجمعة تحديداً يقرب ممّا كان

عليه الأمر في خطب الرسول صلىّ الله عليه وسلم .

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أنّ مرتبة التبليغ عن الله لا ترتفع بصاحبها إلى المستوى المناسب إلا إذا كان ــ مع الكفاءة الخطابية ــ ملّماً بالأحكام الشرعية، لأنّ تلك الأحكام كثيراً ما يسأله المصلّون عنها خارج وقت الصلاة، إذ ليس لهم ــ أحياناً ـ من يفزعون إليه في ما يشكل عليهم سواه .

فإذا أجابهم بغير علم كان عرضة للخطأ في بعض الحالات، ومعرضاً نفسه للوعيد الوارد في قول الله تعالى :

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾[1] .

والله يتولى الجميع بلطفه وتوفيقه وتسديده .

والحمد لله ربّ العالمين .

القيروان في 12 ذي القعدة 1412 وفي 14 ماي 1992

عبد الرحمن خليف

---

(1) سورة الأنعام ـ 144 .



القسم الأول

الجمعة ومؤهلات الخطيب



الجمعة

يقول الشيخ أحمد الدهلوي رحمه الله في شأن صلاة الجمعة: (الأصل فيها أنّه لما كانت إشاعة الصلاة في البلد - بأن يجتمع لها أهلها - متعذّرة كلّ يوم، وجب أن يعينّ لها حدّ، لا يسرع دورانه جداً فيتعسر عليهم، ولا يبطىء جداً فيفوتهم المقصود، وكان (الأسبوع) مستعملاً في العرب والعجم وأكثر الملل، وكان صالحاً لهذا الحدّ، فوجب أن يجعل ميقاتها ذلك.

ثمّ اختلف أهل الملل في الوقت الذي يوقّت به، فاختار اليهود السبت، والنصارى الأحد، لمرجحات ظهرت لهم، وخص الله هذه الأمة بعلم عظيم، نفثه أوّلاً في صدور أصحاب الرسول صلىّ الله عليه وسلم حتى أقاموا الجمعة في المدينة قبل مقدمه إليها، وكَاشَفَهُ اللهُ بِهِ ثانياً بأن أتاه جبريل عليه السلام بمرآة فيها نقطة سوداء فعرفه ما أريد بهذا المثال فعرف.

وحاصل هذا العلم أن أحق الأوقات بأداء الطاعات هو الوقت الذي يتقرب فيه الله إلى عباده، وتستجاب فيه أدعيتهم، لأنّه أدنى أن تقبل طاعتهم، وتؤثر في صميم النفوس، وتنفع نفع عدد كثير من الطاعات، وأنّ لله وقتاً دائراً بدوران الأسبوع يتقرب فيه إلى عباده، وهو الذي يتجلى فيه لعباده في جنة الكثيب، وأنّ أقرب مظنّة لهذا الوقت هو

يوم الجمعـة، فإنّـه وقع فيه أمـور عظام، وهو قـوله صلىّ الله عليـه وسلم (خير يـوم طلعت عليه الشمس يـوم الجمعـة، فيه خلق آدم، وفيـه أدخل الجنّـة، وفيه أخـرج منهـا، ولا تقوم السـاعـة إلا يـوم الجمعة، والبهـائم تكون فيه مُسيخة) يعني فزعة مرعوبة، كالذي هاله صوت شديد، وذلك لما يترشح على نفـوسهم من الملأ السـافل، ويترشح عليهم من الملأ الأعلى حين تفزع أوّلاً لنزول القضاء . . .

وقـد حدّث صلىّ الله عليـه وسلم بهذه النعمـة كما أمـره ربه فقـال: (نحن الآخرون، السابقـون يوم القيامة - يعني في دخـول الجنّة أو العرض للحساب – بيد أنهّم أوتوا الكتـاب من قبلنا، وأوتيناه من بعـدهم - يعني غير هذه الخصلة، فإن اليهود والنصارى تقدموا فيهَا - ثمّ هذا يومهم الذي فرض عليهم . . . فاختلفـوا فيه، وهدانا الله له) أي لهذا اليـوم كما هو عند الله.

وبالجملة فتلك فضيلة خص الله بها هذه الأمة[1].

(1) من كتاب (حجة الله البالغة) للشيخ أحمد الدهلوي ج 2 ص 28.

اختيار موضوع الخطبة

يفكر الخطيب أحيـاناً في اختيـار الموضوع الـذي سيطرقـه فيعجز عن الظفر بأي موضـوع، ولو بعد تفكير طويل، وأحيانـاً تنثال عليه المواضيع انثيالاً بمجـرد ما يتّجـه ذهنه إلى هـذا الأمر، وقـد يحدث في هذه الحال أن يقف مـوقف الحائر المتردّد في تقـديم بعضها على بعض، من أجـل ما قـام لـديه من اعتبـارات تتنـازع تلك المواضيع المتـزاحمة في ذهنه، ثم لا بـد أن يستقر رأيه على البدء بـواحد منها، وأيّاً ما يكن الموضـوع الذي استقر رأيه عليه، فينبغي أن يراعى فيه الاعتبارات التالية:

1 ـ أن يكون ذا صلة بالأحداث الجارية في ذلك الأسبوع.

2 ـ إذا لم يكن قـد جدّ في ذلك الأسبوع ما يستـوجب لفت الانتباه إليه فليكن الموضـوع علاجاً لبعـض الانحرافات التي ألفهـا المستمعون في بيئتهم الخاصة.

3 ـ أن يكون مـوضوع الانحرافات المتأصلة معـروضاً في أسلوب جديد، ولو أنه في مضمونه قديم.

وعلى الخطيب أن ينتبـه إلى أن الانحرافات المتـأصلة لا بـد أن يكون غيره من الخطباء قد سبقه إلى تناولها، سـواء في البلد الذي هو خطيب فيه، أم في بلـد آخـر، وليعلم أن بعض المصلين قـد سبق أن سمعـوا الحديث عنها، فإذا لم يستفيدوا استفادة جديـدة من الموضوع المعاد عليهم تضاءلت

قيمة الخطيب في تقديرهم، أو في تقدير بعضهم ويكون ذلك سبيلاً إلى فتورهم عن الأخذ بتوجيهاته في مستقبل الأيام.

ولقد شاع بين بعض المصلّين أن صاروا يقولون في مثل هذه الحال: (إنَّ ما سيقوله خطيبنا ما هو إلا أمر معروف، وكلام مألوف).

وإن طرافة الأسلوب الذي يعرض به الخطيب أي موضوع مُعاد قد ترتفع بمستواه فتجعله في تقدير السامعين بمنزلة الموضوع الجديد، فيصغون إليه باهتمام، ويرتاحون إلى ما يَلْقَون فيه من استفادات جديدة.

والاستفادة الجديدة قد تكون فيما يدخل على الموضوع المعاد من أدلة صائبة، وأمثلة تقريبية واضحة، ومن أحداث شَيِّقة، إلى مقارنات مثيرة، يستفيق بها الغافل، ويقلع من أجلها المصرّ على الانحراف إن شاء الله.

فإذا اهتم الخطيب بمثل هذه الجوانب وبذل فيها جهداً كافياً من التفكير الرصين، وعرضها بأسلوب جديد وطريف، فإن ذلك لا بد أن يضفي على الموضوع المطروق قدراً عظيماً من عناصر التأثير.

4 ـ إن من المواضيع ما يضطر الخطيب إلى تكرار القول فيه، وذلك كموضوع الصيام عند حلول شهر رمضان وموضوع خطبتي العيدين، وفي مثل هذه الأحوال لا يحسن بالخطيب ـ إذا كان ممن يحرّرون الخطب ـ أن يعيد الخطبة بمادتها وشكلها وأسلوبها، فإن ذلك عيب كبير، وكثيراً ما يستهين به بعض الخطباء، وهو من أعظم عوامل الزهد فيما يقوله، أو الحدّ من تأثير كلامه في المستمعين.

5 ـ ينبغي تجنّب الاقتصار على المواضيع ذات الصبغة المحلية، إذ من الواجب أن يتناول الخطيب بعض الأحداث العالمية خصوصاً ما يحدث في العالم الاسلامي ليربط مشاعر المسلمين بإخوانهم، فإن الله تعالى

يقول : ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون**﴾[1] .

ويقول نبينا ﷺ : (**من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم**)[2] فكان من أوكد واجبات الخطيب أن يكـون ذا اهتمام بأمور المسلمين ، وأن يعمل على ربط اهتمام مستمعيه بتلك الأمور .

---

(1) سورة الأنبياء آية 92 .

(2) رواه أبـو نُعيم في الحلية عن أنس مـرفوعـا بلفظ (من أصبح وهمّه غير الله ، فليس من الله ، ومن أصبح لا يهتمّ بالمسلمين فليس منهم) .

إعداد الموضوع المختار

بعد اختيار الخطيب الموضوع ينبغي أن يفكر فيه، ويدرسه من جوانبه المختلفة، وليتخيرّ لذلك ساعة فراغه ونشاطه، وصفاء نفسه وتوثب همته، فإن ذلك الوقت أدعى إلى الإجادة، وأقرب إلى الكمال.

وبعد تصور الخطيب لأبعاد الموضوع يقسمه إلى مجموعة من العناصر، ويرتبها الترتيب المناسب، ثم يفكر في طريقة تناوله لكل عنصر، وفيما يدرج فيه من الكتاب والسنة وفيما يمكن أن يستنبط من الآيات والأحاديث، وفيما يصحب كل ذلك من عوامل التأثير في تلك المجموعة الخاصة من المستمعين الذين تجمعهم بيئة مشتركة، فإذا صادف أن انضمت إليهم مجموعة أخرى لها اعتبارها العدديّ، كان على الخطيب أن يراعي مشاعر كل من هؤلاء وأولئك.

وعلى الخطيب في المرحلة الأولى من تدربه أن يرسم العناصر وتوابعها على ورقة خاصة في صورة مذكرة، ثم إن كان ممن لا يحسنون الارتجال تولىّ تحرير الموضوع وتبسيطه، في ضوء ما كان أوجزه ورسمه في صورة مذكرة، ويحسن أن يصوغ ذلك في لغة سهلة خالية من السجع، وفي جمل قصيرة بقدر الإمكان.

وإن كان ممن تدربوا على الارتجال اكتفى بما حرّره في المذكّرة، وكرّر النظر فيه حتى تنطبع أجزاء الخطبة في ذهنه، ثم يتولى القاءها مستعيناً بالله،

وغير متقيد بذات الألفاظ المسجلة في المذكرة.

إن الخطيب المرتجل يحتاج في أول تـدربه على الارتجال إلى أن يلخص موضوع الخطبة في نحو صفحة أو أكثـر، وبمتابعته للتدرّب يصبح مكتفياً بأقل من ذلك، بل يصبح مقتصراً على ما يسجلـه في شكل فهرس لعناصر الموضـوع فقط، ولا بـد أن ينتهي بـه الأمـر إلى الاكتفـاء بـالتفكير في جـوانب الموضوع، من غير احتيـاج إلى كتـابة أي شيء من الخطبـة، وكلما كان دارساً للمـوضوع ملماً بأبعاده، كان أقدر على الارتجال وكـان انطلاقه فيـه أمتع له، وأحظى لـدى مستمعيـه، وأحسّ عندئذ بـارتيـاح شديـد، لاكتشافـه ما كان مخبوء في ذاتـه من طاقة، مـا كان يقدّرها حق قـدرها من قبل أن يشرع في التدرّب على الارتجال[1].

ومهما يكن اختيار الخطيب لطريقة إعداد الخطبة سواء اختار تحريرها بكل تفاصيلها، أم اقتصر على عناوين عناصرها، فإن عليه أن يفي بكل ما يقتضيه بناء هيكلها.

---

(1) إن الحديث عن الارتجال أوسع من هذه الملاحظات العـابرة، أنظر تفصيل الحديث عنه بصفحة 35.

بناء هيكل الخطبة

إن الهيكل الكامل لبناء الخطبة يتألف عادة من ثلاثة أجزاء، وهي:

1 ـ الاستهلال أو المقدمة.

2 ـ المقصد أو الموضوع.

3 ـ الخاتمة.

الاستهلال:

لا تستهلّ الخطبة الا بحمد الله وتمجيده والثناء عليه، ذلك لأن الخطبة لون من ألوان العبادة، وأشرف أنواع العبادة الصلاة، والصلاة لا تفتتح الا بحمد الله وتمجيده والثناء عليه، ولقد قال ﷺ: (كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم)[1].

قال الجاحظ إن خطباء السلف الطيّب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم يبتدىء صاحبها بالتحميد ويستفتح كلامه بالتمجيد «البتراء» ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزيّن بالصلاة على النبي ﷺ «الشوهاء»[2].

وقال أيضاً: قال عمران بن حطّان: خطبت عند زياد خطبة ظننت

(1) رواه داود عن أبي هريرة، ورواه ابن مَاجَهْ والبيهقي في السنن عنه أيضاً بلفظ: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع).

(2) البيان والتبيين ج2 ص 4، 5.

أني لم أقصرّ فيهـا عن غـايـة، ولم أدع لطـاعن علـة، فمـررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن[1].

ثم إن أهل هذا الشأن كثيراً مـا استحسنوا أن تقع الاشارة في مستهل الخطبة إلى الموضوع الذي سيتنـاوله الخطيب، وذلك في غضون التحميد، أو الثناء على الله أو تمجيـده، أو التشهد، أو الصـلاة على النبي ﷺ، أو في أثناء ذلك كله، وسمّوا هذه الاشارة (بـراعة الاستهلال) وما استحسنوها الا من أجل أن يتهيأ بها السـامعون إلى تلقي الموضوع، فيكـون ذلك أدعى إلى تطلعهم إلى الاستفادات الجديدة المنتظـرة من الخطيب، والتي يتوقعون أن تتفوّق على ما عندهم من علم بذلك الموضوع.

ولا تحسن تلك الاشـارة الا إذا كـانت اشارة خـاصـة بحيث يتضح منها موضوع الخطبة، أما إن كانت عـامة كالاشارة إلى الدّين أو إلى الطاعة بوجه عـام مثلاً، فإنها أبعد ما تكون عن الوفـاء بحسن الاَفتتاح عند علماء البيان.

ولقد نقل الجاحظ عن عبـد الله بن المقفع أنه قـال: (وليكن في صدر كـلامك دليل على حـاجتـك، كما أن خير أبيـات الشعـر البيت الـذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته[2].

وعلق عليـه الجاحظ فقال: (كـأنـه يقـول: فـرّق بين صـدر خطبـة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فانه لا خير في كلام لا يدل على معنـاك، ولا يشير إلى مغـزاك، وإلى العمـود الـذي إليـه قصـدت، والغرض الذي إليه نزعت)[2].

---

(1) المصدر السابق ج2 ص 4، 5.

(2) المصدر السابق ج1 ص 129.

قيل لابن المقفع: (فــإن مَلَّ المستمع الاطـالـة التـي ذكـرت أنها حق ذلك الموقف؟) فقال: إذا أعطيت كل مقـام حقه، وقمت بـالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعـرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضـا الحاسـد و العدوّ، فإنـه لا يـرضيهما شيء، وأمـا الجاهل فلست منـه وليس منك، ورضـا جميع الناس شيء لا تنـالـه، وقـد يقال: رضـا الناس شيء لا ينال)[1].

المقصد:

المقصد هـو الموضوع الـذي يتناوله الخطيـب، وينبغي أن يراعى في عرضه أموراً، بعضها واجب، وبعضها مستحسن في بعض الأحوال.

ما يجب في المقصد:

تجب في عرض المقصد ستة أمور:

1 ـ وحدة المقصد:

إن وحـدة المقصـد أمـر ضروري، إذ لا يحسن أن تكـون الخطبـة ذات مـواضيع مختلفة الا إذا دعت إلى ذلك ظـروف خـاصة بـالمستمعين، وقصد الخطيب أن يبادر إلى تلافيها جميعاً في مناسبة معينة.

2 ـ الايضاح الكافي:

لا بـد من تـوضيح المقصـد بأحسـن بيـان مع الاستعـانـة على ذلك بنصـوص من الكتـاب والسنـة، وبِضرب الأمثـال، وعـرض بعض القصص الـوجيزة المنـاسبة، تـأسِّياً بكتـاب الله تعالى في ضرب الأمثـال، وتوجيه الأمة الى الاعتبار بقصص من تقدمها من الأمم.

---

(1) المصدر السابق ج1 ص 129، 130.

3 ـ التحري الدقيق :

على الخطيب أن يتحرى الصحة لكل نص يـريد نقله ، فينقله بمنتهى الدقـة وأن يتجنب نقل واهي الآثار ، وضعيف الأخبار ، متحـاشياً صنيع بعض الخطباء والدعاة الذين ينقلون أحياناً ما يتنافى تماماً مع الحقائق الدينية الثـابتـة وحجّتهم في ذلك أن بعض كتـب التفسير أوردت ذلك ، مع أن بعض كتب التفسير اشتملت على ما لا يصح على الاطلاق .

قال السيوطي : (ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير ودوّن ما تجمّع لديه من ذلك ، فأُلِّفَت تفاسير تجمع أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة والتـابعين مع ذكـر الأسـانيـد ، كتفسير سفيـان بن عيينـة ووكيع بن الجراح وغيرهما ممن تقدم ذكرهم .

ثم جـاء بعـد هـؤلاء أقـوام أَلَّفُوا في التفسير فـاختصروا الأسـانيـد ونقلـوا الأقوال غير معـزوّة لقـائليهـا ، ولم يتحرَّوا الصحـة فيها يـروون ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل .

ثم صـار كـل من يسنح لـه قــول يـورده ، ومن يخطـر ببـالـه شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ، ظـانّاً أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف[1] .

وقال الأستاذ محمد حسين الـذهبي : (وفي الحق أن هذا السبب يكاد يكـون أخطـر الأسبـاب جميعاً ، لأن حـذف الأسـانيـد جعل من ينظـر في هذه الكتب يظن صحـة كل ما جاء فيهـا وجعل كثيراً من المفسرين ينقلون عنها مـا فيها من الاسرائيليـات والقصص المخترع على أنه صحيـح كله ، مع أن فيها ما يخالف النقل ، ولا يتفق مع العقل .

وإذا كان للوضع خطـره ، وللاسرائيليات خطرهـا ، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها ، ولكن حذفها

(1) الاتقان في علوم القرآن ج2 ص 190 .

ـ ولـلاسف ـ عَمَّى علينا كل شيء، وليت هـؤلاء الذين حذفوا الأسـانيد وعُنُوا بجميع شتـات الأقوال فعلوا كما فعل ابـن جرير من روايـة كل قول باسنـاده، فهو وإن كـان لم يتحرّ الصحـة فيما يرويـه، إلاّ أن عذره في ذلك أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقـد خرجـوا عن العهدة، فإن أحـوال الرجـال كانت معـروفة في العهـد الأول، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة)[1].

4 ـ الجمع بين التبشير والتحذير:

لا بد في الموضـوع الواحد من الجمع بين التبشير والتحذيـر، ولا يعدل عن هـذا المنهج الا في الحالات النـادرة، ذلك لأن الجمع بينهما هـو المنهج الذي اختـاره الله لاصلاح عبـاده، فالله سبحـانه ما أرسـل رسله الا مبشرين ومنذرين، والرسل عليهم الصلاة والسلام هم قدوة كل داع الى الله.

وإذا تأملنـا في القـرآن العظيم وجدنـاه منـزّلاً على الجمع بين التبشير والتحذير، فمن أمثلة ذلك هذه الآيات:

﴿نبيء عبـادي أني أنـا الغفـور الـرحيم، وأن عـذابي هـو العـذاب الاليم﴾[2].

﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾[3].

﴿وإن ربك لـذو مغفـرة للنـاس على ظلمهم، وان ربك لشـديـد العقاب﴾[4]. . . الخ.

حتى أنه إذا ذكر صفات أهل السعادة ذكر معها صفة من صفات أهل الشقاوة، فهو يقول:

---

(1) التفسير والمفسرون ج1 ص 202.

(2) سورة الحجر آية 49 و50.

(3) سورة الأعراف آية 167.

(4) سورة الرعد آية 6.

﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾[1] ﴿وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة... وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية﴾[2].

ويقول ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾.

فعقبه بقوله: ﴿وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[3].

ويقول: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾.

فقابله بقوله: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا﴾[4]... الخ... الخ.

إن السر في هذا الجمع واضح، ذلك لأن القرآن يخاطب أصنافاً مختلفة من الناس، فمنهم من تسوقه الرغبة سوقاً إلى فعل الخيرات واجتناب المحذورات، ومنهم من لا يستجيب لذلك إلاّ إذا صدعت قلبه قوارع التهديد.

ولا شك أن الخطيب يقف في مجموعة من الناس تختلف أمزجتهم ومشاعرهم اختلافاً بيناً، وإنه لموقف يدعوه، إلى انتهاج هذا المسلك الرشيد، لكنّ هذا لا يعني أن يكون كل موضوع مشتملاً على التبشير والتحذير، بل إنَّ ذلك ينبغي أن يحدث، في غالب الأحوال وأكثر المواقف، وقد يقتصر على أحدهما عند الاقتضاء، وهذا هو ما نجده في القرآن العظيم، لأن من سُوَرِه ما لم يشتمل الا على أحد هذين العنصرين، فالتحذير المحض في

---

(1) سورة عبس آية 33، 39، 40.

(2) سورة الغاشية آية 2، 3، 8، 9.

(3) سورة الليل من آية 5 إلى 10.

(4) سورة الانشقاق من آية 7 إلى 12.

سورتي التكاثر والهمزة، والتبشير المحض في سورة الشرح . ولكن الاقتصار على أحدهما نادر جداً في القرآن كما ترى .

5 ـ تجنّب المجازفة بادعاء المعرفة لما لم يعلم :

على الخطيب أن يحذر الحذر التام من الكلام فيما ليس له به علم، خصوصاً فيما يكون من دقائق العلوم التي لا صلة له بمعرفتها، فإن مثل ذلك لا يأمن فيه من الخطأ أو الارتباك، فينحط من أجل ذلك اعتباره في نفوس أهل المعرفة بذلك الأمر، كما لا يأمن أن تتطور استهانتهم به فتتحول إلى الاستهانة بكل ما يدعو إليه مما ليس لهم به علم، قياساً على ما لهم به علم ويكون الخطيب بهذا التصرف مسيئاً من حيث إنه يريد الاحسان .

6 ـ تسلسل أجزاء الموضوع :

ينبغي أن تكون أجزاء الموضوع متسلسلة بصورة يفضي فيها كل جزء إلى ما بعده، وأن تكون حلقات السلسلة مفضية إلى النتيجة المقصودة .

ما يستحسن في المقصد :

يستحسن في المقصد كل ما له أثر في رفع مستوى الخطبة، ويرجع معظم ذلك إلى إثارة الشعور، وبعث الاهتمام وتحريك النشاط .

إن أثر الخطيب في المستمعين لا يعظم إلا بمقدار قدرته على إثارة عواطفهم، والاستحواذ على مشاعرهم، وهذه الاثارة تتوقف على عدة أمور، منها :

1 ـ أن يكون الخطيب متقد العاطفة، مأخوذاً حقاً بما يدعو إليه، وأن يعمل على صوغ مشاعره بما يلائمها من الألفاظ، ويصوّرها كأكمل وأروع ما يكون التصوير، وبذلك تسري حماسته وحرارة عاطفته في إحساس المنصتين إليه، وبمقدار ما في عاطفة الخطيب من حرارة يكون اقتداره على إلهاب عواطفهم وتحريك مشاعرهم المختلفة، من رغبة

واشتيـاق، إلى نـدم وحسرة، ومن تعجـب واستيـاء، إلى حنق واستنكـار، ومن تفجّع واشفـاق، إلى غضـب ونقمـة، ومن تطلع وانتظـار، إلى مسرّة وابتهاج، وهكذا تتسرّب مشاعره الحارة إلى نفوسهم، فتفعل فيها ما يفعل السحر، وخصوصاً إذا كان العرض في بيان رفيع وإلقاء جيّد، فإن ذلك هو السحر المبين، أو لم يقل رسول الله ﷺ: **(إن من البيان لسحراً)**[1].

2 ـ أن يكون ذا تصوّر مقبول، بحيث يعرض الصور الطريفة الشيقة بعيدة عن الإغراق في المبالغات، لتكـون تلك الصـور أداة لتقـريب مـا يدعو إليه من أذهان مستمعيه، ولتحريك مشاعرهم وجذبهم إليه، وذلك من أعظم ما يساعد على تقبل ما يدعو إليه مبشراً كان أو محذراً.

وَتَأَمَّل الأثر العظيم الذي تحدثه أقوال الرسول ﷺ في النفوس عندما يبشر بمثل قـوله: (مثل الصلوات الخمـس كمثل نهر جار عـذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فما يبقى ذلك منَ الدنس؟)[2].

وعندما يحذر بمثل قوله: **(مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقـد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفـراش وهذه الدوابّ التي يقعن في النار يقعن فيهـا، وجعل يحجـزهن ويغلبنه فيقتحمـن فيها، فـذلك مثلي ومثلكم، أنـا آخـذ بحجـزكم عـن النـار هَلُمَّ عـن النـار، هلم عـن النـار، فتغلبـوني فتقتحمون فيها**[3].

3 ـ أن يحـرص على الاهتمـام بمـا يجـدّد نشـاط السامعين ويشـدّ انتباههم إليه، ومما يساعد على هذا الأمر تنويع الأسلوب.

فتارة يعمد بعد المقدمة إلى أسلوب التساؤل، فيسأل ـ مثلاً ـ عن معرفة السامعين للحكم الشرعي في قضيـة الموضوع، ثم يذكـر أن من الناس من لا

---

(1) رواه أحمد عن ابن عباس.

(2) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله.

(3) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

يعـرف ذلك الحكم، أو لا يهتم بمعـرفته على الـوجـه الحق، ويـؤكد أنـه لا يحسن بالمسلم أن يجهل مثل ذلك الحكم، مع أنه يتصل بحيـاته الشخصية أو بحياة المسلمين بصفة عامة، ويستغرب أن يبقى المسلم غير عالم به.

أو يتساءل عن علم السامعين بحادث اهتزت له القلوب وامتلأت منه النفـوس ألماً وحسرة، ويـذكـر بعض أحــداث الأسبـوع التي كـان لها في القلوب والنفوس مثل ذلك الأثر.

أو يتساءل في استغراب عـن أسباب فتور العاطفة الـدينية من بعض المسلمين، ويبين أن منهم اليــوم من ﴿**يسمع آيـات الله تتلى عليـه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها**﴾[1].

ثم يستعرض بعض المظاهر التي تؤكد ذلك.

وبعد تساؤلاته يقوم بتوضيح مـا يناسب كل نوع من هذه الأمثلة أو من غيرها.

إنَّ أسلوب التسـاؤل كثيراً ما يستخدمـه رسول الله ﷺ في مخاطبـاته فيقول: أتدرون مـا كذا وكذا؟ (**أتحبون أيها الناس أن تجتهـدوا في الدعاء؟ قولوا اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**)[2]... الخ كما كان ﷺ يستخدم نفس الأسلوب في خُطَبه أحياناً، فيقول: ـ كما في خطبة الحج الأكـبر ـ (**أي يـوم أعظـم حرمـة؟ أي شهـر أعظم حرمة؟ أي بلـد أعظم حرمة... ألا هل بلغت؟**)[3].

ـــ وتــارة يعمـد الخطيب إلى عـــرض قصـة قصيرة ذات عبرة بــالغـة سواء أكـانت من الأحداث الجديـدة، أم من التاريـخ القديم، ثم يـربطها بالموضوع الذي يريد التكلم فيـه، ويسوق الشواهد على ذلك من نصوص

---

(1) سورة الجاثية آية 8.

(2) رواه الحاكم عن أبي هريرة.

(3) رواه أحمد وغيره عن جابر.

الكتاب والسنة، ويحلل ويقارن، ثم يستخلص النتائج والعبر.

ـ وتارة يبتدىء بنص من القرآن أو السنة أو من كليهما، فيفسرهما، ويربط واقع الأمة أو تلك المجموعة بذات النصوص، ويعبرّ عن بالغ الألم فيما إذا كان واقع المسلمين لا يتماشى مع تلك النصوص.

ـ وتارة يعمد إلى موضوع ثريّ لا تتسع خطبة واحدة للاحاطة بأبعاده، فيقسمه على عدّة خطب في سلسلة ذات حلقات متواصلة، وفي هذه الحال يحسن أن يختم كل حلقة بما يترك المستمعين في تشوق إلى معرفة ما بعدها.

وعلى الخطيب أن لا يقتصر على تنويع أسلوبه من خطبة إلى أخرى، بل ينبغي أن يسلك نفس المسلك في الخطبة الواحدة بالقدر المستطاع فإنه كلما كان حريصاً على التنويع وجد قدرته عليه تتسع أكثر فأكثر، ووجد أن المستمعين لخطبته أكمل انتباهاً وأعظم اغتباطاً.

ومع مراعاته للتنويع ينبغي أن يحذر من أن تكون بداية الخطبة أشد حرارة من نهايتها، فإن ضعف النهاية كفيل باضعاف حرارة البداية، وربما قوّضت كل ما شيدته البداية، فمن السداد أن تكون النهاية في نفس المستوى الذي انطلق منه، وأحسن من هذا الصنيع أن تكون نهايتها أقوى حرارة وأعظم تأثيراً، ولا ضير فيما قد يتخلل الطرفين أحياناً من نزول عن مستواهما.

ما يتحتم في المقصد أحياناً:

ان ما يتحتم على الخطيب في بعض الأحيان هو أن يقيم الدليل على صحة ما يدعو إليه، وعلى تزييف نظرية تتنافى مع ما هو مقرّر في الدين، أو على إبطال ما يتوهم بعض الناس أنه من الدين، أو على الرد على إشاعة باطلة.

إن هذه القضايا وأشباهها كثيراً ما تكون في حاجة إلى توليّ الخطيب توضيح الحق فيها، وإنارة الأفكار بشأنها، والتوضيح لا يكون ذا أثر

إلاّ إذا قام على أدلة مسلمة، والدليل المستعمل في الخطابة هو أحد نوعين:

الأول الدليل المنطقي.

والثاني الدليل الخطابي.

أما الأول فاستعماله في الخطابة الدينية أقلّ من الثاني، والمنطقي لا يَنْبَني الا على مقدمات يقينية تفضي إلى نتائج قطعية، وله أقسام وأحكام توجد مفصلة في (علم المنطق) فمن أراد معرفتها فليطلبها فيه.

وأما الدليل الخطابي فيكون مبنياً على مقدمات قد لا يسلّم بها العقل المجرّد، وهي التي يستند فيها الخطيب إلى أثر مشهور، أو إلى مثل سائر، أو إلى حكمة رائعة، أو إلى عرف شائع، أو إلى ما بين الاشياء من تماثل أو تخالف وهذه المستندات كثيراً ما ينشأ عنها اقتناع شعوري وتأثر عجيب، ومن أمثلة ذلك كلمة ألقاها محمد بن كعب القرظيّ بين يدي عمر بن عبد العزيز قال فيها: (إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم، وكم من قوم قد غرّهم مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا مُرملين[1] لم يأخذوا لما أحبّوا من الآخرة عُدة، ولا لما كرهوا جُنَّةً، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت فقدّمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت، فابتغ به البدل حيث يجوز البدل، ولا تذهبنّ إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عندك، يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم، وردُ المَظَالِمَ[2].

فهذه الكلمة قد اشتملت على طائفة من الأدلة الاقناعية كما ترى، وبذلك تحقق فيها عنصر هام من خصائص الخطابة، وهو حمل السامع على

---

(1) أرمل نفد زاده فافتقر.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص 134.

الاقتناع النفسي بما يتضمنه الخطاب.

الخاتمة:

هنـاك تعبير شائع بين النـاس، يعبرون به عن كل خـاتمة طيبة، وهـو قولهم: (وختامه مسك) وهـذا التعبير مستمد من القرآن في وصف شراب أهل الجنة إذ يقول تعالى ﴿**يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك**﴾[1].

إن هـذا الوصف الالهي الكـريم يشعـرنـا بما للختام من أثـر عظيم في النفوس، ولقـد انتبه علماء البلاغة إلى هـذه الحقيقة، فنراهم يتبعـون آثار عبـاقرة البلغـاء، ويعـدون ارتفاع مستـوى الخاتمة في كل خطـاب من أهم عنـاصر (علم البديع) أحـد فروع علم ا لبـلاغة، ويسمـون ذلك (براعـة الختام).

كـانت الخاتمة من أجل ذلك جـديرة بمـزيد العنـايـة، لأنها آخر مـا يعلق بـآذان السامعين، فتكـون أكثر استقـراراً في أذهانهم، وأبلغ أثـراً في نفـوسهم، وعلى مستـوى جودتها يكـاد يتم ارتســام الصـورة الانطباعيـة للخطبة كلها، ولمبلغ الأثر الذي تتركه في العقول وفي القلوب.

والخاتمة الجيّـدة تتنـوع فيهـا منـاهـج الخطبـاء، فمنهم من يضمّنهـا تلخيصـاً لأهم عناصر الموضـوع بأسلـوب يغايـر مـا بسط به الموضـوع، وتكون آخر جزئية منها أحرّ نقطة مضت في الخطبة.

ومن الخطباء مـن يجمع فيها أبلغ مـا يحرك العواطف ويثير الحماس، مستخـدمـاً التســاؤل، أو التعجب، أو الاستنكـــار، أو التفجع، أو الاستياء، أو التحسر، أو التأميل، أو الابتهاج. . . الخ.

ومن الخطبـاء من يجمع بين الطريقتين في الخاتمة الـواحـدة، وأيّاً مـا يكن اختيار الخطيب لطـريقة الخاتمة، فلا بـد أن يتخير لها أنصع الألفاظ،

---

(1) سورة المطففين آية 25 و26.

وأرشق التعابير، وأوجز التراكيب، وأن يختمها بجوامع الدعاء للسامعين ولجميع المؤمنين، وخير الدعاء ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن أمثلة الخواتم الحسنة ما جاء في خطبة لأبي حمزة الأزدي، حيث تعمّد أن يجعل خاتمتها وصفا لأحوال الشهداء من أصحابه فقال: (. . . فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد. . . ثم بكى وقال رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان)[1].

ومن الخطباء من يكاد يلتزم دعاء معيناً في منتهى الخاتمة. قال ابن عبد ربه: (وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته:

«اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك».

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته:

«اللهم لا تدعني في غمرة، ولاتأخذني على غرّة، ولا تجعلني من الغافلين».

وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: «اللهم إن ذنوبي قد عظمت، وجلّت أن تحصى، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني»)[2].

---

(1) العقد الفريد ج2 ص161 والبيان والتبيين ج2 ص61.

(2) المصدر السابق ج2 ص133 ـ 142.

الارتجال

لا يخفى أن هناك فرقاً بين عرض الأفكار المرتجلة وبين الالقاء الارتجالي.

أما عرض الأفكار المرتجلة فهو عيب ينبغي اجتنابه، ولقد شاع من مأثور كلام القدماء أنهم كانوا يستعيذون بالله من الرأي الفطير، والعاقل هو من لا يستهين بالاقدام على عرض ما لم يكتمل نضجه من أفكاره، فإن ذلك مغامرة قلّما تسلم فيها العواقب، ومن هنا رأينا فرسان البيان ما كانوا ينزلون إلى ميدان القول إلا وهم على أتم استعداد.

روى ابن هشام في السيرة النبوية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكّر الناس في إحدى خطبه بما قد حدث عند مبايعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة فذكر أن انصارياً تكلم قبله يومئذ ثم قال عمر: (فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زوّرت[1] في نفسي مقالة قد أعجبتني أريد أن أقدّمها بين يدي أبي بكر... فقال أبو بكر على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، وكان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري[1] إلاّ قالها في بديهة أو مثلها أو أفضل)[2].

---

(1) تزوير القول تهيئته واعداده بعناية.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج 4 ص 309 طبع الحلبي 1936.

فإذا كـان عمر يحتـاج إلى تهيئة خطابـه، وانتقاء كلماتـه بعنايـة، فهل يستغني عن ذلك مـن يكـون دون عمـر تفكيراً وتعبيراً؟ ولقـد قـال ابن المعتز:

الفكر قبل القول يُؤْمَنْ زيغه   شتّان بيـن رويـّة وبديهـة

والبديهة الصائبـة قد تكون موهبة لبعض النـاس، كبديهة أبي بكر في خطبته التي أشـار إليها عمر رضي الله عنه غير أن في كلام الجاحـظ ما يدلُّ على أن البديهة سَجيَّـةٌ في كل العرب، فهو يقول: (وكل شيء للعـرب فهو بـديهة وارتجال، وكأنـه إلهام، وليست هنـاك معانـاة، ولا مكـابـدة، ولا إجـالـة فكـر، ولا استعانـة، وإنما هـو أن يصرف وهمه إلى الكـلام، وإلى الرجـز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئـر، أو يحدو ببعير، أو عند المقـارعـة أو المناقلـة، فما هـو إلاّ أن يصرف وهمه إلى جملـة المذهب، وإلى العمـود الذي إليـه يقصد، فتأتيـه المعـاني ارسالاً، وتنثـال عليه الألفـاظ انثيـالاً. . . وكـانـوا أميّين لا يكتبـون، ومطبـوعين لا يتكلفـون، وكـان الكلام الجيّد عنـدهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقـدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيـان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهـو عليهم أيسر مـن أن يفتقـروا إلى تحفظ، أو يحتـاجـوا إلى تدارس، وليسوا كمن حفظ علم غيره، واحتذى كلام من كان قبله، فلم يحفظـوا إلا ما علق بقلـوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقـولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب[1].

ومن يشتهر بـالقدرة على الارتجال في أيامنـا هذه قـد يفاجأ في بعض المناسبات فيطلب منـه أن يلقي كلمة في موضوع مـا، من غير إعداد سابق ولا إشعـار متقدم، وقـد يصحب ذلك الطلب إلحاح زائد، وتتـوجه إليـه

(1) البيان والتبيين.

عيون الحاضرين فلا يجد مخلصاً من القبول، فإن كان جيّد الممارسة للارتجال كان آمناً من أن تَخْذلَهُ قدرته في مثل تلك الحال، ومع هذا فقد كان عليه أن لا يحضر مثل تَلك المناسبات دون أن يستعد للكلام أتم استعداد، توقعاً لكل طارئة، فإن لم يحدث ما توقعه ولم يفسح له مجال القول فليحمد الله على العافية.

وما من شك في أن الخطباء المرتجلين لا بدّ أن تنال خطبهم أضعاف ما قد يكون لها من تأثير فيما لو قرئت من الورق، خصوصاً إذا أعدوا الأفكار بعناية ورتبوها أحسن ترتيب، واهتموا بمراعاة الإلقاء.

أما القارىء لأي خطبة من الورق فما هو إلاّ قارىء وليس بخطيب.

إن تواطؤ كثير من الخطباء اليوم على قراءة الخطب من الأوراق قد جرّأ من لا يحسنون إلاّ القراءة والكتابة على أن اعتقدوا أنهم أهل للخطابة ما دامت الخطابة بهذا المعنى لا تقتضي منهم إلا أن يقتني أحدهم كتاباً أو كتابين يشتملان على مجموعة من الخطب في مواضيع متنوعة، وفي كل أسبوع يختار منها موضوعاً يقرأ على المصلين، وبهذا التصرف يعتقد أنه قد أصبح مؤدياً لهذه المهمة على أكمل وجه.

وقد روى الجاحظ وغيره شعراً لأبي مسمار العكلي يثني فيه على الخطيب المرتجل، ويزري بالقارئين من الورق، فيقول:

(لله درّ عامر إذا نطق ... في حَفْل إملاك وفي تلك الحَلَقْ
ليس كقوم يعرفون بِالسَّرِق ... من خطَب النَاس ومما في الورق
يلفقون القول تلفيقَ الخرق ... من كل نضاح الجبين بالعرق
إذا رماه السامعون بالحدق)[1]

---

(1) البيان والتبيين ج1 ص 148 وفي رواية للجاحظ: من كل نضاح الذفارى، والذفارى هو البدن، وفي رواية: إذا رماه الخطباء، والرواية التي أثبتها أنسب.

هل الارتجال سهل؟

نعم، ولا . .

نعم، عندما يتم استعداد الخطيب للارتجال.

ولا، إذا اقتحم مجاله بدون استعداد.

إن الاستعـــداد الكـــامل لـــلارتجال لا يتم إلاّ إذا صحت في المرتجل قوى ثلاث، وهي:

- القوة النفسية.
- القوة العقلية.
- القوة البيانية.

وكل خطيب لا تتفوق قـدرته في مجال الارتجال إلا بمقـدار نماء هذه القوى فيه، ولا تضعف قدرته إلا بضعفها منه.

القوة النفسية:

إن أول مؤهلات المرتجل أن يكون متمتعاً بقوة نفسية كافية، وهي التي يكون معهـا واثقاً بقـدرته الكاملـة على كل ما يقتضيـه الموقف، أما الضعف النفسي فهو أخطر الآفات التي تَخْذُلُ المندفعين إلى ميدان الارتجال.

ومن مظـاهر الضعف النفسي أن المصـاب به يضطـرب ويتلجلج في خطـابه، وقـد تعتريـه حبسـة لا يستطيع التخلص منهـا في موقفـه، وربما استحوذ عليـه من أجلهـا خوف دائم، فـلا يعود معـه إلى الارتجال في بقية حياته.

إن الضعف النفسي ينتج عن عدة أسباب، بعضهـا مستقر زمناً ليس بالقصير، وبعضها طارىء مفاجىء، ومن بين تلك الأسباب:

1 ـ تردد الخطيب في القدرة على الارتجال، ولو كان على حظ عظيم من القوتين العَقلية والبيانية.

2ـ توقعه لبعض المفاجآت التي يضخّم له الوهم أنواعها.

3 ـ خشيته من العجز عن مجابهة بعض المفاجآت، ومن عدم تحمله لمرارة الهزيمة.

4ـ خوفه من أن لا يظفر بارتياح المستمعين لما يلقى عليهم.

5 ـ إحساسه بهذه الأسباب أو غيرها في صورة أمر مبهم، لا يدرك له حقيقة، ولكن رهبة الموقف الذي سيقدم عليه هي التي أبهمت عليه ذلك الأمر، وطمست معالمه، وضخّمت حجمه لديه، فأصابه مجرد الوهم بالاخفاق، قبل إقدامه على أي أمر يمكن في الحقيقة أن يتسبب عنه الإخفاق.

إن هذه الأسباب المثبطة قلما تعتري النفوس المحصنة بالمران على الارتجال في الخلوات، أو في جمع صغير من الأصدقاء والأخوان.

فإن لم تحصّن النفس من قبل بالمران المناسب، سطا عليها الضعف، واستولى عليها الخوف ثم الانهيار.

إن علاج الضعف النفسي في هذا المجال أمر ميسور، وذلك بإقصاء الهواجس المثبطة، وطردها عن النفس، وكلما مرّ بخاطره هاجس منها طرده سريعاً، فلا يجترّه، ولا يتركه يعود إليه قسراً، وكلما عاد إليه دفعه بضده، وأشعر نفسه بما يبعث فيها الثقة والاطمئنان، وذكرّها بما عسى أن كان لها من مواقف الاقدام والثبات، وبما حققت في تلك المواقف من نتائج، كما يذكرها بمواقف الرجال المتفوقين في هذا الميدان، وبأنهم ما انتهوا إلى تلك الغايات إلا على مراحل لم تَسلم لهم بدايتها من عثرات، فلم ييأسوا من إدراك النجاح، فكانوا لذلك من الفائزين.

كما يذكرّها بأن عقلاء المستمعين إليه لا بدّ أن يلتمسوا له الأعذار

فيما لـو يتعثر بعض التعثـر ، خصـوصاً إذا كـان في بدايـة اقتحـامه لميـدان الارتجال ، فهم يدركون أن أصعب الأمور مباديها ، وعلى احتمال أن تصيبه عثـرات يحفظهـا عليه فـريق من المستمعين ويعـدّونها من عيـوبـه فليتمثّل بقول القائل : (كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه) .

ويجب أن يطعن بعنف في كل مـا يســاوره من أوهـام التثبيط ، حتى يسلم منها ويصح نفسيـاً ، فينقلب تردده قوة عـزم ويقين ، ثم ليتوكل على الله ، وليشرع بكـامل الثقـــة في إلقـاء خطبتـه بنفس مطمئنـــة لأن إلقـاء الخطاب بتردّد وهمة فـاترة لا يكـاد يكون لـه مفعول إيجابي ، ولـذلك يلجأ المتكلم إلى كيفية عكسية ويتخذ مظهر الواثق من نفسه بصورة جريئة . . .

ومهما تكن شكوكـه وتردداته وتهيبـاته التي تسـاوره ، فإنه لا يسمح لها بأن تظهر عليه في مسلكه . . .

والاحسـاس في سريـرة نفس الشخص بأنه ــ يقيناً ـ على صـواب قد يكون عونـاً مهمّـاً في إحداث هذا الأسلوب المطمئن الـواثق ، وإن كان هذا الاحساس في الحقيقة غير ضروري لذلك .

فـالخطيب المحنّك الـذي تعلم طـريقـة الأسلـوب المطمئن الـواثق يستطيع أن يجعل ذلك لنفسه كالقناع)[1] .

القوّة العقلية :

النشـاط العقلي في الارتجال نشـاط متسع الآفـاق ، يستلـزم حـركـة ذهنية سريعة بينِ كافة مراكز الاهتمام .

ولا يخفى أن مـــراكـز الاهتمام متعـــددة في كل خطـاب ، ولا بـــدّ أن يظفـر كل منهـا بحَظٍّ من عنـايـة الخطيب ، إذ إنها تستوجـب سلامـة أفكـار الموضـوع ، وتنسيقـها ، وعـرضهـا في صـورة مشرقـة ، وبسط الأدلـة عنـد

(1) التفكير المستقيم ، تأليف روبرت هـ ثاولس ص 143 مطابع اليقظة .

الاقتضـاء، إضـافـة إلى العنـايـة بجـودة التعبير ورشـاقتـه، مع الاهتمام بعنـاصر التأثير، ومـراعـاة خصـائص الالقـاء الجيـد، وكل هـذه الجوانب تحتاج إلى جهد مكثف، ولا يقتدر على الإيفاء بهذه المتطلبات على أكمل وجه إلاّ من كان ذا قوة عقلية سليمة، ولو لم تبلغ حد العبقرية أو ندرة النبوغ.

إن الضـعف العقلـي لا ينتـج في كثـير من الحالات إلاّ عـن تـرك الارتيـاض على التفكير السليم، شأنـه في ذلـك شأن الجسم، فكما نحس أن الجسم تتضاعف قواه بالارتياض والمران الكثير، نجد العقل يزداد حدة وقوة بالتدرب على التفكير تحت مراقبة ماهرة، وتـوجيه سديد، وفحص لنتائجه، فيسهل بعدئذ أن تصدر عنه النظريات الصائبة والأحكام السليمة.

أمـا من لم يكن ذا حظ من هذه القـوة فإنـه يسهل أن ينخدع بمجـرد النظـر السطحي للأمـور، وتلتبس عليه الحقـائق بالأبـاطيل فيخطىء من حيث يعتقد أنه يصيب.

وقـد ينتج نـوع من الوهـن العقلي عن سبب عابـر يعتري أصحـاب العقول السـديدة أنفسهم، ومن الأسبـاب المؤثرة عليهم انغماس النفس في حزن على شيء فـائت، أو استغراقهـا في كآبة قـاتمة لتوقع أمـر مكروه، أو إحـاطتها بقلق شـديد نـاشيء عن بعض المضايقـات، أو لتواصل السهـر والسهاد، أو لمعاناة بعض الآلام الجسدية. . . الخ.

إن مثل هذه الأعراض قد يطول أمـدها وقد يقصر، وكلما طال أمدها كـان أثـرهـا أقسى، وعلى الخطيب أن يحرص على التخلص منهـا، حتى لا يقف المواقف وهو شـارد الذهن مُشتَّتُ التفكير، فإن ذلك لا يسـاعده على الظفر بالإجادة المنتظرة، بل انه قد يقع في الخطأ الفادح وهو لا يشعر.

القوّة البيانية:

إن غايـة كل خطيب هي أن يكاشف مستمعيه بما يزخـر في ذهنه من معان، يفترض أن المستمعين بحـاجة إلى إدراكهـا، وعلى وجه يستقبلـونه

بغاية الارتياح، وما من سبيل إلى بلوغ هذه الغاية إلا قوة البيان.

والخطيب الأريب لا تقتصر مهمتـه على عـرض أفكاره مُجُرَّدَ عـرض، بل إنَّ مهمتـه ترتفع عـن هذا الحد إلى المستـوى الـذي يصنعه البيـان البليغ في النفوس، وللبيان آفاق تكاد أَبعادُها تستعصي عن التحديد، ولقد قال رسول الله ﷺ في كلام ارتقى به صاحبه إلى أفق منها: (إن من البيان لسحرا)[1].

وسبب هذا الحديث أن عَمْـرو بن الأهتم والزّبرقان بن بـدر وَفَدَا على رسول الله ﷺ، فسأل الـرسول عَمْراً عن الـزبرقان، فقال في وصفـه: مانع لِحَوْزَتِهِ[2] مطاع في أذينه[3] فقال الزبرقان يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنـه حسدني يا رسـول الله في شرفي، فقصرّ بي، فقال عمـرو: أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلاّ ضيّق الصدر، زمر المروءة، لئيم الخال، حـديث الغنى، فلما رأى أنـه خـالف قـولـه الآخـر قـولَـه الأول، ورأى الإنكار في عين رسـول الله ﷺ قال: يـا رسول الله رضيت فقلت أحسـن ما علمت، وغضبت فقلت أقبـح مـا علمت، ومـا كـذبت في الأولى ولقـد صدقت في الآخرة، فقال النبي ﷺ عند ذلك: (إن من البيان لسحرا)[4].

وقـريب من هـذا النوع البيـاني (أن غيـلان بن خرشـة الضبّي مـرّ مع عبدالله بن عامر بنهر أمّ عبد الله الـذي بشق البصرة، فقال عبد الله بن عامر: «ما أصلح هذا النهر، لأهل هذا المصر» فقال غيلان أجل والله أيها الأمير.

- يتعلم فيه العوم صبيانهُم.
- ويكون لسقياهم.
- ومسيل مياههم.

---

(1) رواه أحمد عن ابن عباس.

(2) الحوزة مجال النفوذ.

(3) أذين الرجل قومه الذين يقوم عليهم زعيماً.

(4) البيان والتبيين ج 1 ص 70 و 333.

- ويأتيهم بميرتهم[1].

ثم مرّ غيلان يُساير زياداً على ذلك النهر (وقد كان عادى بني عامر) فقال له: «ما أضرّ هذا النهر لأهل هذا المصر» فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير.

- تندى منه دورهم.

- ويغرق فيه صبيانهم.

- ومن أجله يكثر بعوضهم[2]

إنّ تلوين الحديث عن الشيء الواحد في كل من المثالين السابقين ما صدر إلاّ عن ميل ذاتي وهوى نفسي، لا عن نظر مجرد عن الهوى مع أن عمراً وغيلان قد صدقا في الوصف الأول، ولم يكذّبا في الثاني، وإنما حملهما الرضا على التنويه بالجانب المشرق أولاً، ودفعهما الغضب إلى الإعلان عن الجانب المقابل ثانياً.

إن معظم الأشياء وأحداث الحياة قلّما تخلو من تلك الجوانب المتقابلة، وبإمكان كل متحدث أن يتناول الجوانب التي تلائم ما في نفسه، فإن كان ذا بيان صدق عليه قول الشاعر..

لقد وجدتَ مجال القول ذَا سَعَةٍ — فإن وجدتَ لساناً ناطقا فَقُلِ

وإن تلك الظاهرة البيانية في المثالين السابقين تدلُّ على أن أصحابها يتمتعون بحظّ من النظر الفاحص، وبقدرة تعبيرية جيّدة، يستطيعون بهما أن يعرضوا ما يشاؤون من صفات الأشياء والأحداث في القالب الذي يريدون والإطار الذي يحبون، إلا أن مباحث الدين ينبغي أن لا تكون مجالاً للتلوين على نسق ما في المثالين السابقين، وإنما على الخطيب أن

(1) الميرة الطعام الذي يدخر.

(2) العمدة لابن رشيق ج 2 ص 219 مطبعة حجازي بالقاهرة.

يبسط الأمور في الإطار المقرر لها في الدين، لأن ما استحسنه الشرع هو حسن حقاً، ولو لم يكن حسناً في تصوّر بعض الأذهان، وما استقبحه الشرع هو قبيح حقاً ولو استحسنه فريق من الناس.

أما المثالان السابقان فما أوردتهما هنا إلا للتنبيه على سعَة مجال البيان، وعلى أن بإمكان الخطيب إذا كان بصدد الترغيب في أمر أن يتقصّى ما يحيط به من الصفات المستحسنة، كما أن بإمكانه إذا حذّر من أمر أن يتقصى صفاته المستكرهة، على أن لا يخرج في هذا البيان أو ذاك إلى ما يتنافى مع ما هو ثابت في الدين.

انحدار البيان:

كثيراً ما تساهم بعض العوارض في انحدار البيان عن المستوى الرفيع.

ومن تلك العوارض ما هو خلْقي، ومنها ما ينشأ عن عدم الاهتمام بقواعد فن الخطابة.

أما العوارض الخلْقيّة فكثيرة، من بينها الفأفأة، والتّمتمة، والّلفْلَفَة، والبحّة، واللّثغة.

فالفأفأة هي التّعثّر في حرف الفاء أثناء الكلام، فيردّده المتكلم عند بداية النطق بالكلمة، ولو لم يكن للفاء موقع في تلك الكلمة، وقد تقوى الفأفأة بصاحبها فيبدو لاهثاً عند النطق بأول الكلمة الواقعة في بداية الجملة.

والتمتمة هي التعثر في حرف التاء، سواء كان لهذا الحرف وجود في الكلمة أم لم يكن.

وقد مدح أحد الشعراء خطيباً فصيحاً، فقال:

ليس بِفأْفَاءٍ ولا تمُتَمامِ ولا كثير الحشو في الكلام

واللفلفة أو اللفَّفُ هي إدماج بعض الكلمة فيما بعدها، قال أحد الشعراء يصف متكلماً:

كأن فيه لَفَفاً إذا نَطَقْ   من طول تحبيس وهمٍّ وأَرَقْ

والبحّة خشونة الصوت مع اختناق أو ضعف، والبحّة قد تكون خلقية، وقد تكون عارضة تزول بالمعالجة.

واللثغة هي العجز عن النطق بحرفٍ ما، وإبداله بحرف آخر، وهي أنواع كثيرة، ذكر الجاحظ شيئاً منها فقال:

(ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة، وما يحضرني منها هي أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء. . . فاللّثغة التي تعرض للسين، تكون ثاء، كقول الألثغ لأبي يكْسُوم، أبي يكثوم، وكَمَاَ يقولون بُثْرة، إذا أرادوا بُسرْة، وباثِم الله، إذا أرادوا باسم الله.

والثانية اللّثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول قُلت له يقول طُلْتُ له، وإذا أراد أن يقول قال لي، قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام، فإن من أهلها من يجعل اللّام ياء، فيقول بدل قوله أعتللت، اعتييت، وبدل جَمَلْ جَمَىْ، وآخرون يجعلون اللام كافاً، كالذي عرض لعُمَرَ أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول ما العلة في هذا؟ قال: مَا كْعكَّةُ في هذا؟

فأمّا اللثغة التي تقَع في الراء، فإن عددها يضعّف على عدد لثغة اللّام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف، فمنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمى فيجعل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال عمغ: فيجعل الراء غيناً، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال عمذ، فيجعل الراء ذالاً. . .

واللثغة في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهنّ، وأوضعهنّ لذي المروءة، ثم التي على الذال، فأما التي على الغين فهي أيسرهن.

ويقال: أن صاحبها لو جهد نفسه جهده، وأحدّ لسانه، وتكلّف مخرج الرّاء على حقها والافصاح بها، لم يكن بعيداً من أن تجيبه الطبيعة، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً حسناً.

وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين، وكان إذا شاء أن يقول عمر، ولعمري، وما أشبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلف، والتّهيؤ لذلك فقلت له: إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر، فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحداً أن لسانك كان يستقيم[1].

هكذا نرى الجاحظ يشير على محمد بن شبيب بمحاولة إصلاح لسانه زمناً كافياً حتى يستقيم على النطق الصحيح، وكم من خطيب حَدَّثَتْنا ترجمة حياته أنه استطاع أن يتغلب على بعض العاهات اللسانية، فأصبح من أعلام الخطباء، وأصل ذلك كله إنما هو العزم والصبر والمثابرة.

وأما ما ينشأ عن ترك الاهتمام بقواعد الخطابة، فعيوب كثيرة تنحدر بالبيان قليلاً أو كثيراً وذلك على مقدار الاهتمام بتلك القواعد، خصوصاً ما هو مقرّر منها في المؤهلات الصناعية، أو في جودة الإلقاء.

ومهما تكن كفاءة الخطيب اللسانية والبيانية فإن عليه أن يعمل ـ بلا انقطاع ـ على إخصاب قواه البيانية، والنفسية والذهنية، حتى يكون حظّه من مزايا الارتجال أعظم حظٍّ يتمتع به خطيب.

---

(1) البيان والتبيين ج 1 ص 50، 51 و 52 باختصار.

مزايا الارتجال:

للارتجال مزايا عظيمة الأهمية، ومن أهمها:

1 ـ أن الخطيب المرتجل يستطيع أن يغيرّ مجرى خطابه تبعاً لما عسى أن يجدّ من أحوال المستمعين، فقد يكون كلامه في اتجاه معينّ فيلاحظ من المستمعين ما يدعوه إلى اتجاه آخر فيتحوّل إليه، غير متقيد بشيء مكتوب، وقد تكون تلك الفرصة أثمن فرصة هيّأها له ذلك الموقف، فلا يستهين باستثمارها، لأنها قد لا تعود.

حدث أن أبا جعفر المنصور كان يخطب، فلما واجه الناس بقوله: (اتقوا الله) قال له أحدهم (أُذَكِّرُكَ مَنْ ذَكَّرتنا به)، فقال له أبو جعفر: (سَمْعاً سَمْعاً لِمَنْ فهم عن الله وذكّر به، وأعوذ بالله أن أُذكَّرَ به وأنساه، فتأخذني العزة بالاثم، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين) ثم التفت إلى الرجل وقال: (وما أنت؟ والله ما الله أردت بها، ولكن ليقال قام فلان فقال، فعوقب فصبر، وأهْونْ بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أختَها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا نبتت)[1] ثم عاد إلى موضوع خطابه.

2 ـ أن الارتجال كثيراً ما يسعف الخطيب بمدد من تدَاعي الأفكار، فقد يكون بصدد الحديث عن أمر معينّ، إذا هوقد انبثق في ذهَنه شيء آخر ما كان مستعداًّ له من قبل، وما خطر له على بال، فيرى أن هذه الفكرة الطارئة أرفع منزلة، وأعظم تأثيراً مما كان هيّأه في نفسه، فيقتنصها ويضيفها إلى ما هو بصدد الحديث عنه.

3 ـ أن للارتجال أعظم الأثر في تحريك انفعال الخطيب، من أجل توجّه اهتمامه إلى ما يقول، لا إلى ما يقرأ، ولا يخفى أن التأثير في المستمعين يشتد بمقدار تأثر الخطيب وانفعاله.

---

(1) تاريخ الطبري ج 9 ص 311 والكامل لابن الأثير ج 6 ص 12.

4 ـ أن المستمعين يعتبرون المرتجل خطيباً، لا أنه مجرد قارىء للورق، وهذا الاعتبار مساعد على تَقَبُّلِهم لما يُشَافِهُهُم به أكثر من تقبلهم لما يقرؤه غيره عليهم.

مزالق الارتجال:

ومن المرتجلين من يتضاءل اعتبارهم في نظر المَستمعين، أو يصابون بحبسة مريعة، فينهار اعتبارهم تماماً.

أما تضاؤل اعتبارهم فينشأ عن عدة أسباب، منها:

1 ـ أن يتناول أحدهم موضوع الخطاب من غير إعداد كاف فيكثر تردده، أو سكتاته الطويلة، ويلوح عليه الاضطراب، فينغِّصُ مُستَّمعيه، ويتمنَّون أن يُنْهي كلامه.

2 ـ أن يتواصل بيانه بلا توقف، ولكنه يعرض الموضوع في صورة أفكار غير واضحة، أو مبعثرة، تلك من هنا، وهذه من هناك.

3 ـ أن يعرض هيكل الموضوع أفكاراً مرتبة، ولكنها مفكّكة، وتفصل بينها ثغرات يملؤها باللغو وفضول الكلام، فيكون كمن قيل فيه:

(ويرتجل الكلام وليس فيه   سوى الهذيان من حشو الخطيب)

4 ـ أن يعهد من نفسه أنه مصاب بالذهول وشرود الذهن أو النسيان، ومع ذلك يُقْدِم على الارتجال.

وأما إصابة المرتجلين بالحبسة وبحجب المعاني عنهم فإن أكثر ما يكون ذلك عند مهابتهم الشديدة للموقف، وانبهارهم من نظر الناس إليهم، وأنه لموقف رهيب.

قيل لعبد الملك بن مروان: عجَّل عليك المشيب يا أمير المؤمنين، فقال: (كيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين؟).

ومرة قال: (شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن).

وصعد روح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد رفعوا رؤوسهم إليه، ووجّهوا نحوه أبصارهم، وتهيأت له أسماعهم حَصِرَ[1] فقال: (نكّسوا رؤوسكم، وغُضُّوا أبصاركم، فإن المنبر مركب صعب، وإذا يسرَّ الله فتح قفلٍ تيسّر).

وكان عبد ربه اليشكري عاملاً على المدائن، فصعد المنبر فحَمِدَ الله وأُرْتِج عليه[2] فسكت، ثم قال معتذراً: (والله إني لأكون في بَيتي، فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدري، ولقد كنت وما في الأيام يوم أحب إليّ من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض إليّ من يوم الجمعة وما ذلك إلا لخطبتكم هذه).

وخطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى فارتج عليه فمكث ساكتاً ثم قال: (والله لا أجمع عليكم عيا[3] ولؤماً، من أخذ شاة من السوق فهي له، وثمنها عليّ[4]).

هل نيأس إذاً من القدرة على الارتجال؟

إن كل ما تقدم لا يحملنا على اليأس من القدرة على الارتجال، بل لا يحمل ذوي الهمم المتوثبة إلا على الثقة بالقدرة عليه، وذلك عندما نتلمس مواطن الضعف، ونعالجها بما تقدم توضيحه في كل من القوى

(1) حَصِرَ: عَيِيَ بالنُّطق.

(2) ارتج على الخطيب: استغلق الكلام عليه.

(3) العي: العجز عن الكلام.

(4) أخبار من أرتج عليهم وردت في خاتمة الجزء الثالث من جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت.

الثلاث، فإذا صحب ذلك إرادة صادقة وتمرّن متواصل، فإن الخطيب يتمكن بمشيئة الله من ناصية الارتجال.

ومن خير ما يساعده عند التمرن:

1 ـ أن يتدرب على الارتجال باستمرار في وقت ثابت، ويحسن ـ عند الإمكان ـ أن يكون أكثر من مرة في الأسبوع.

2 ـ أن يفكر في المواضيع التي سيتدرب عليها، ويعدّها إعداداً تاماً كأنه سيلقيها على مَلأ من الناس، وبعد إعداد الموضوع يرتجل القول فيه.

3 ـ أن تكون مواضيع التدرب واضحة عنده، غير متشعبة المسالك، ولا مترامية الأبعاد.

4 ـ أن يكون إلقاؤه في أناةٍ وعلى مهل، وأن يعلم أن ما يطرأ عليه من انقطاع تسلسل كلامه، ما هو إلاّ ظاهرة عابرة، ستنتهي بمرور بعض الوقت.

5 ـ أن يقوم بالارتجال في بعض المناسبات بين أصدقائه، ويستشير من يثق برأيه وإخلاصه، ثم يلتزم بإصلاح ما لا يستحسن منه.

6 ـ أن يحرص على أَنْ لا يخطب من الورق بعد انقضاء وقت كافٍ من التدرب.

7 ـ أن يهتم ـ عند الإمكان ـ بملاحظة الخطباء المرتجلين، وبكيفية تصرفهم، ومدى تأثّر المنصتين إليهم.

فإذا عمل بهذه الملاحظات قضى على اليأس من القدرة على الارتجال.

أما مزالق الارتجال فليعمل على تفاديها بتجنّب أسبابها المتقدمة.

وأما الحصر والإرْتَاج فلا يهوله منها ما قد يحدث له عند مواجهة الجماعات أو الجمهور، وينبغي أن لا يحمله ذلك على اليأس، وليهوّن

الأمر على نفســه إذا شق عليه، كما هوّن زياد بن أبي سفيـان على عبد الله بن عامر.

قال الجاحظ: (لما حصر عبد الله بن عـامر على منبر البصرة شقّ ذلك عليه، فقـال له زياد: أيها الأمير إن أقمت عامّـة من ترى، أصابه أكثرُ مما أصابك)[1].

وليعلم الخطيب النـاشىء أنـه لا يحمد الخطيب مع كـل ما تقـدم إلاّ إذا كان جيِّد الإلقاء.

(1) البيان والتبيين ج 2 ص 255.

جودة الإلقاء

في النظام الـزيتوني[1] كان للامتحان منهج خـاص، ومن مميزاته أن التحرير الخاصّ بالمواد الكتابية تتولى فحصـه لجنة رباعية لتمنحه الدرجات المناسبة، وكنت عند مشاركتي في تلك اللجان أشعر بأمر غريب، وهو أن بعض التحـارير يكـون في مستوى متـوسط، ولكن من يقـوم بقراءتـه من أعضاء اللجنـة قد يكون جيّد الإلقـاء، فيكسوه من حسن إلقائه مـا يجعله في تقدير كافة الأعضاء أعلى من مستواه الحقيقي.

ويحدث العكس عنـدما يقـرأ أحد التحـارير الجيـدة عضو لا يكـون حسن الإلقـاء، فإن مستوى ذلك التحـريـر الجيد ينحطّ ـ في تقـدير بقيـة الأعضاء ـ عن حقيقة مستواه.

وفي بعض الأحيـان يختلف الأعضاء اختـلافـاً بعيداً في تقـدير أحـد التحاريـر، فيضطرون إلى إعادة قراءتـه، وعندئذ إما أن تنزل قيمتـه نزولاً يجُمع على اعتباره كـافة الأعضاء، وإمـا أن ترتفع قيمته لـديهم جميعاً، وفي كثير من الأحـوال لا يكـون ذلك التأرجُحُ في التقـديـر، إلا أثـراً من آثـار الالقاء، وما صحبه من نغم مناسب.

نَغَمُ الإلقاء:

إن الأشياء البسيطة كثيراً مـا تُعرض في أَغلفة أو ظروف تـم اختيارها

(1) أقصد نظام التعليم بجامع الزيتونة سابقاً.

من مادة جيّدة، ووقع إدراج تلك الأشياء فيها بعناية وذوق، فكان لتلك الأغلفة والظروف من الجاذبية ما يجعل قيمة الشيء المعروض فيها أرفع مما لو لم يعرض فيها، أو لم يكن وضعه فيها بتلك العناية، وبذلك الذوق.

وتنطبق هذه الحقيقة على الكلام نفسه، فكم من الكلام ما كان ذا معنى مألوف أو حكم معروف، ولكن المتكلّم به يكسوه من صفاء صوته، ورونق نبراته ما يأخذ المستمع بنشوة المستطرف لشيء لم يكن يعرفه من قبل.

ومن هذه الحقيقة ندرك الفرق بين خطيبين: خطيب يسرد الخطبة بنغم لا يتبدل من بدايتها إلى نهايتها، أو يكاد لا يتبدل كذلك، وخطيب تتنوع تموجات صوته تبعاً لما يحمله التعبير من مختلف المعاني، فالأول شبيه كل الشبه بتلميذ يقرأ درساً من كتاب مدرسي، أما الثاني فهو متمتّع بحظ وافر من جودة الإلقاء المطلوبة في كل خطيب.

وكم من خطبة ألقاها خطيب مُلّم بفن الإلقاء، فكان لها في نفوس السامعين أبلغ الأثر، فإذا نشرتها إحدى المجلات ظهرت قيمتُها وهي مقروءة أدنى كثيراً من قيمتها التي كانت لها وهي مسموعة، وليس ذلك إلا لما كساها الخطيب من جمال نبراته المتمثلة في حسن إلقائه.

إن الخطبة ما هي إلاّ وسيلة لإبلاغ ما فكّر فيه الخطيب إلى عقول السامعين وقلوبهم، وما سميت الخطبة إلا لتسمع، وبأدنى انتباه إلى اسمها، ندرك أنها نوع من الخطاب، والخطاب لا بدّ أن يتناول مختلف المعاني، فكان من الواجب أن تتنوع نغمات الخطاب تبعاً لتنوع المعاني.

صفات الإلقاء الجيد:

ينبغي للخطيب أن يراعي في إلقائه مجموعة من الأوصاف، ومن أهمها:

1 ـ أن يكون ــ في معظم الخطبة ـ متوسط السرعة، لا بطيئاً، ولا عجولاً.

ويمكن ــ في أثناء الخطبة ـ أن يلقي نصاً، أو حكمة، أو فقرة من الفقرات إلقاءً بطيئاً، وبنغم مناسب للمعنى، ومغاير لما سواه من النغم.

2 ـ أن تختلف تموجات صوته، فلا يكون بنغم رتيب لا يتبدل، أو يكاد لا يتبدّل.

إن النغم الرتيب في الإلقاء شبيه بصوت الماء النازل من حنفية على مستوى واحد من النغم الثابت، وإن مثل هذا الإلقاء قلّما يشدّ انتباه السامعين إليه، بل إنه مجلبة للتثاؤب والنوم، أو الضجر والسآمة، سواء أكان النغم لطيفاً أم عنيفاً.

3 ـ أن يلائم بين المعاني ونغمات صوته، بحيث تختلف فيه نغمة الترغيب عن نغمة الترهيب، ونغمة الرجاء عن نغمة الخوف، وهكذا يختلف النغم بين الابتهاج والاكتئاب، وبين الغضب والاشفاق، وبين التعجب والتحسّر، وبين الاخبار والتساؤل.. الخ.

4 ـ أن يضغط على الكلمات التي يحتاج الموقف إلى إبرازها حتى تستأثر بوقع خاص في أسماع المنصتين، وفي عقولهم أو قلوبهم.

فلو نطق الخطيب بمثل هذه الجملة: (الولد الصالح نعمة من الله يجب الشكر عليها مدى الحياة) لكان من الواضح أنه يقصد كل عبارة بذاتها من تلك الجملة، ولكن اهتمامه ـ في الجوّ الخاصّ بتلك الخطبة ــ قد يكون منصبّاً أكثر على صلاح الذرية، وفي هذه الحال يكون من المناسب أن يبرز كلمة (الصالح) بالضغط عليها، حتى يميزها النغم العالي عن بقية ألفاظ الجملة، ليلفت اهتمام السامعين إلى منزلة هذا الصنف من الذرية، وقد يكون اهتمامه في تلك الخطبة متوجهاً إلى تعداد ما تفضل الله به على بني آدم، على حدّ قوله تعالى:

﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾[1] .

فيحسن إبراز (نعمة)، وقد يريد لفت الانتباه إلى أن هذا الفضل فضل عظيم، لأنه من عند الله، والفضل إذا كان من الله كان فضلاً عظيماً، وهنا يضغط على عبارة (من الله) وإذا كان بصدد الحث على الشكر أبرز كلمات (يجب الشكر عليها) وإذا أراد الحث على مواصلة الشكر ضغط على قوله (مدى الحياة) ليشعر السامعين أن هذه النعمة ينبغي أن يتواصل الشكر عليها بتواصل بقائها .

ولكي ندرك الأثر الطيّب لمثل هذا التصرف الجيد، يمكننا أن نلتفت إلى ما يجري في الكلام العادي إذا صدر عن أيّ متكلم وإلى ما يحدثه النغم من أثر في صناعة البيان، مثال ذلك إذا قال هذا المتكلم : (إن العربة تنتظر بالباب منذ نصف ساعة) فهو قد يبرز كلمة (العربة) عن أخواتها بنغم ضاغط رفيع ليدفع بذلك توهم السامع أنه سيذهب مشياً على قدميه، وقد يبرز عبارة (تنتظر) ليشعره بأن الاهتمام بشأنه ترتب عليه أن تنتظره العربة، وقد يبرز عبارة (بالباب) لإفهامه أن العربة قريبة منه كلّ القرب، وقد يبرز كلمات (منذ نصف ساعة) لإعلامه بأن الانتظار قد طال إلى هذا الحد .

وهكذا تختلف أحوال المخاطبين بالكلام الواحد، ويكون النغم خير معبّر عن المقاصد الخاصة لكل متكلم، ولكن الخطيب أولى الناس بمراعاة نغم الخطاب .

ومن هنا يتبين الفرق الشاسع بين الكلام الذي يكتب، والكلام الذي يسمع، وتظهر الحاجة إلى اهتمام المتكلمين بتنويع نغمات الخطاب، إذ لا يخفى أن هناك فرقاً بين الكاتب والخطيب، فالكاتب يعتمد أكثر ما يعتمد على ما يكتب من كلمات، وعلى قدرته في التأليف بينها، حتى يرسم

---

(1) سورة النحل آية 72 .

بـائتلافهـا صوراً معبرّة للقـارىء في غيـاب الكاتب، ثم إن للقـارىء من الفرص ما يجعله يتأنى في قراءة ما كتب الكاتب، أو يعيده مرة أو أكثر متى شاء ذلك.

أما الخطيب فهو يعتمـد ـ إلى حدّ بعيد ـ على تموّجـات صوته، وعلى حسن تصرفـه في تلـوين نغماتـه ليبرز كل معنى في ثـوب يتـلاءم معـه تمام التلاؤم، بينما يفقد المستمع أيّة فرصة للعودة إلى ما استمع إليه، إلا إذ عنّى نفسه، وقام بتسجيل ما يلقيه الخطيب.

5 ـ أن ينزل بصوته عن مستواه قليلاً، كلما أشرفت فقرة من فقرات الخطاب على الانتهـاء، فلا ينهيهـا بنغمة صـاعدة، إلاّ إذا بقـي لها ارتباط بما بعدها، وأن ينزل بصوته كذلك عندما يتحدث في الأثناء عن شنيعة من الشنـائع، أو مأســاة من المآسي، حتى كأنــه يهمس بها في آذان الســامعين همْساً، وكأنـه يخجل أو يعجز عن أن يرفـع بذلك صوتـاً، فإن عقّب عليها بما يكشف عن غضب الله احتد لذلك، وانزعج، ورفع صوته.

وإن من نعم الله على خطبـاء هـذا العصر أنهم أصبحـوا يتمتعـون بما توفـر لديهم من أجهـزة توصل مختلف نغماتهم إلى جميع المستمعين حتـى ما يكون منها في خفاء الهمسات.

إن تنوّع مراتب الصوت أمر وهبه الله للإنسان، ولم تكن هذه الموهبة إلا لحكمـة بـالغـة، ولا يخفى أن المعـاني المختلفـة يتطلـب كل منهـا نغماً ملائماً له، لأن في ذلك التلاؤم دعماً قوياً لعناصر التأثير.

عناصر التأثير

ليست مهمـة الخطيب منحصرة في توضيح الأحكـام الشرعية، ولا في التعـريف بمـوقف الإسـلام مـن بعض القضـايـا، ولا في الموعظـة والتـذكير، ولا في الإرشاد والتـوجيـه ولا في الترغيب والترهيب، ولكن مهمته تحيط بجميع تلك المواضيـع، وبما إليها، وتستلزم حتماً ـ إلى جانب ذلك ـ أن يهتم أعظم الاهتمام بكل مـا من شـأنـه أن يـوقظ العقـول من استغراقها في متاهات الغفلات، وأن يهزّ القلوب المتوقفة عن الإحساس بما خلقت لأجلـه، وعن تصـورهـا للمنهج الـذي أقـامـه الله لاستخـلاف الانسان في الأرض.

والناس ليسوا سـواء في قبولهم الحق، ورغبتهم في الاهتداء، وذلك لعدة أسباب، منهـا اختلاف أمزجتهم، وتفاوتهم في الـذكاء، وفي مراتب المعرفـة وفي حظوظهم مـن التربية، وفي مـدى صلاح البيئات التـي يحيون فيها، وفي تقديرهم لقيمة من ينصتون إليه... الخ.

والقرآن العظيـم نبّه على هـذه الحقيقة، فذكـر أن طائفـة خاصـة من الناس تفيض أعينهم من الدمع عند سماعهم الحق:

﴿وإذا سمعوا ما أنـزل إلى الرسول ترى أعينهم تَفيضُ من الـدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربّنا آمنا فاكتبنـا مع الشاهدين وَما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾[1].

(1) سورة المائدة آيتا 83، 84.

ولما كانت غاية الخطيب أن يؤثر في من يستمعون إليه بأكبر قدر تبلغه الطاقة البشرية، كان عليه أن يتزود بأكبر قدر من عناصر التأثير، ليستعين بذلك على استيعاب أكبر قدر من أصناف المستمعين على اختلاف أحوالهم.

إن عناصر التأثير كثيرة، ومتنوعة، وأهمها:

1 ـ تعليل أحكام القضايا.
2 ـ تحريك مشاعر المستمعين.
3 ـ إثارة حميّتهم.
4 ـ مكانة شخصية الخطيب.
5 ـ تجنّب التعالي على المستمعين.
6 ـ الإشفاق عليهم.
7 ـ الحرص على جودة الإلقاء.

وإليك بيانها مفصّلة:

1 ـ تعليل أحكام القضايا:

كان كثير من الخطباء في القرون الأولى إذا أراد أحدهم مخاطبة الناس في أيّ أمر اكتفى بعرض بعض النصوص المتعلقة به من الكتاب والسنة، وربما أضاف إليها ما شاء من الأحداث والمواقف الكريمة لسلفنا الصالح، أو لمن تقدمهم من أمم الرسل السابقين، فما هو إلا أن تبلغ كلمة الخطيب من السامعين مبلغاً عظيماً، وتؤثر فيهم تأثيراً عجيباً، وقد لا يهتدي مستمع إلى سرّ التشريع الإسلامي في بعض القضايا فيتساءل في نفسه عن الحكمة من ذلك، وما يتحرك خاطره بهذا الاستفسار حتى يجيبه هاتف الايمان الحق من أعماق نفسه:

إن الله حكيم، خبير،

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1] .

أمـا في العصـور الأخيرة فقـد أصبـح الحال مختلفـاً عن الحال ، فقـد كادت مخالفة بعض النـاس لما يسمعون من كلام الله وحديث رسـوله تكون أمراً مألوفـاً ، وصار أمثال هؤلاء بحـاجة إلى أن يتعامل الخطيب معهم على ما عليه مبلغ إيمانهم ، ومستوى مداركهم ، ليتيسر انقيـادهم إلى ما يدعوهم إليه ، لذلك أصبح من الواجب أن يتوسع الخطيب في بيان أسرار التشريع ، ويسهل عليـه ذلك إذا قـام بتـوضيح الأخطـار النـاتجة عن كل مـا نهى الله عنه ، وكشف عن المحاسن والمحامد لكل ما رغّب الله فيه ، وبهذا التصرف يستجيب إلى حاجة كثير من المستمعين إليه في هذا العصر .

وكمقارنة نجـريها بين خطيبين يتناول كل منهما موضـوع الخمر مثلاً ويكون أحـدهما من خطباء السلـف ، والآخر من خطبـاء هذه الأيام فـإننا إذا قـارنّا بينهما نجـد الأول يعرض مـا يتيسر لـه من النصوص الـواردة في تحريم الخمـر ، وإذا أضـاف إليها شيئـاً فقلّما يخرج عن تفسير مـا فيهـا من مفـردات أو سبب نـزول ، وقـد يضيف إلى ذلك أن يـوصي بتقـوى الله ، وبخشيته والتحـذير من عقابـه ، فيكون لهذا القدر أعظم الـوقع في نفوس السـامعين لأن النفـوس الطيبـة تتحـرّج من الاثم ، ولأن الايمان الحق يحمل صاحبه على الانتفاع بالذكرى ، ألم يقل الله :

﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[2] .

ولا شك في أن ما يشبـه تصرفات الخطباء القدامى ، ما يـزال له تأثير على بعض النفوس حتى اليوم ، ولكن كثيراً من النـاس لا يستجيبون ـ إلى نداء من يدعوهم إلى الله ـ بعـض الاستجابة إلا إذا كان نداؤه يستجيب إلى ما فرضته ظروف هذا العصر ، لذلك نجد الخطيب المسموع الكلمة في هذه

---

(1) سورة الملك آية 14 .

(2) سورة الذّاريات آية 55 .

الأيام، هـو الذي يضمّن دعوتـه توضيحـاً يتلاءم مع التصورات الـذهنية عند هؤلاء الناس.

ففي موضوع الخمر ينبغي أن يكشـف عما فيه من مضار تتلف أخلاق الناس، وعقولهم، وأبـدانهم، وأموالهم، وتنشر الجريمة، وتفسد العـائلة وتـدمـر روابط الأسر، وتفكك تماسـك المجتمع، وتجعل السكّير فـاقـداً للشعور بالمسؤولية، فيفعل ما لا يفعله أي عاقل.

وكل بلية من تلك البلايا ذات أبعاد خبيثة، وتفصيلها يحتاج إلى بيان عـريض، ولو اقتصرنـا على أثـر الخمر في صحـة السكير فقط لهالنـا حجم الكـارثـة التي أثبت الطب أنها تحيق بـه على مـراحل، وأن المرحلـة الأولى قلّما لا يكون لها ما بعدها.

لقد أثبت الطب أن السكّير إذا كانت نسبة الكحول في دمه ملّيغرام في كل سـانتليتر، فإنـه يصـاب بضعف الملاحظـة والتفكير، فإذا وصلت ملّيغـرامين، أصيب بالمرح الصـاخب أو الهدوء الحزين، فإذا بلغت ثلاثـة ملّيغـرام، دخل في طور الـوقاحـة والسبـاب والخصام، فإذا بلغت أربعـة ملّيغـرام، صار غير قـادر لا على المشي ولا على التفكير، وثقل لسانـه عن الكـلام، وفي الخمـس مليغـرام يأتي دور النبض الضعيـف، و التنفس البطيء، ثم الإغماء التام.

أما إن وصلت نسبة الكحـول في دم السكير ستة ملّيغرامات فـالوفاة التامة.

والخمـر يتسبب من جهـة أخرى في الأمـراض العقليـة، وفي الشلل الاهتـزازي، وفي أمـراض الكلى، والكبـد، وتصلب الشرايين، وارتفـاع ضغط الدم.. الخ.

وليس التعليل، وتوضيح حكمة التشريع بأمر مبتدع في الدين بل هو معتبر فيه، ومـلاحظ فيما ورد عن الله ورسولـه، ولكن ذلك وارد بإيجاز،

وفي وروده إشارة إلى المنهج المثمر في مجال التوجيه، فلقد قال سبحانه:

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة..﴾[1].

فأنت ترى أن الآية تضمنت توضيحاً لطائفة من البلايا المنجرّة من تناول الخمر.

وفي القرآن والسنة كثيراً ما نجد التعليل مقترناً بالحكم الشرعي، إما أن نجده وارداً بعده، كما في قضية الخمر، وإما أن نجده متقدماً عليه، كما في قوله تعالى:

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض..﴾[2].

وقد يكون التعليل مطوياً في الكلام بطريق الاشارة، كقوله تعالى:

﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين﴾.

فإن من موجبات حمد الله أنه سبحانه هو القائم بتربية العالمين إيجاداً، وحفظاً، ورحمة، وأنه القادر على بعثهم ليكافئهم على كل ما يعملون، فكانت تلك الصفات الكريمة في الآيات مذكرة للحامد بما هو واجب عليه، وموضحة لجملة من الأسباب التي قام عليها واجب الحمد.

ومن هنا كان على الخطيب أن يتأسى بخطاب الله لعباده، فلا يعرض أمراً إلاّ وهو واضح الأسباب بينّ النتائج، وفي تقصّ لا يدعو إلى السأم ولا ينحدر إلى الاسفاف.

وقضية التعليل إذا نظرنا إليها ـ بصفة أشمل وأوسع نعلم ـ مع الأسف ـ أن من اقتنع بشيء من أجل دليل أو عدة أدلة هو إنسان لا يوثق بإقناعه، لأنه عرضة لأية شبهة تقدح في ذلك الدليل، أو الأدلة،

(1) سورة المائدة آية 91.

(2) سورة البقرة آية 222.

وهذا من الفوارق التي أصبح بها خلف الأمـة مغايراً لسلفها، إذ إن سلف الأمة لما آمنوا بـالله ورسوله التزموا بقبـول كل ما بلغهم من طريق صحيح عن الله ورسوله، وصاغوا حياتهم على ذلك جملة وتفصيلا.

والغـريب في ناس هـذا العصر أن طائفـة منهم أصبحوا مفتـونين بما سمّوه تحكيم العقل، فلا يكادون يستجيبـون إلا إلى ما يوافق عقولهم هم، وأكثر من هذا أن منهم من يتجرّأ فيحاول أن يناقش ما ثبت بنص قطعي عن الله ورسولـه، وقد يحتـال فيرفض بعض الأحاديـث مدّعياً أنـه يتشكك في صحة نسبتها إلى رسول الله ﷺ، كل ذلك إرضاء لنفسه، واستجابة لهواه، فهـو لا يـرضى أن يـوصف بأنــه مخالف لتعـاليم الاسـلام، ولـذلك يبرّر مخالفـاته بشتى التعـاليل التي يتـوهم أنها كفيلـة بأن يعتبره النـاس ملتزمـاً بالاسلام، ولكن في حدود ما يقرره عقله المستنير كما يدعي. . .

وكثير من هؤلاء من يضعـون النصوص في غير مـوضعها، فإذا أراد أحدهم تبرير بعض المخالفات استشهد بقوله ﷺ: (إن الدين يسر) مع أن هـذا الحديث مـا ذكـره ﷺ إلا للمستغـرقين في نـوافل الخير ليردّهم إلى التخفيف مما يـزيـد على الـواجبـات، لا أنـه ذكـره لتبريـر التفـريط في الواجبات.

وأصل هـذا الحديث كما في البخـارى: (**إن الـدين يسر، ولن يشـادّ الـدين أحد إلا غلبـه، فسـدّدوا وقاربـوا، وأبشروا، واستعينـوا بالغـدوة والروحة وشيء من الدلجة**).

هذا هو الحديث بتمامه، ومنـه يتبين أنه ﷺ لم يقل إنّ الدين يسر فقط وسكت، وإنما قال: إن الـدين يسر ولن يشادّ الدين أحـد إلا غلبه. . الخ ومنه يتبين أن تنبيهـه، على التيسير موجّه للـذين كانـوا يحمّلون أنفسهم في نوافل العبادة أكثر مما تطيق الاستمرار عليه.

ولا شك مع هـذا في أن المشـاعر الـدينيـة هي التي مـا تزال تسـوق

المصلين إلى الجوامع، ولكن التصوّر الديني في هذا العصر قد تكدر عند بعض المسلمين بألوان من التلوّث، وقد اختلفت مصادر تلك الألوان، وتنوّع تأثيرها على النفوس، فكان من ذلك أن طائفة من المصلين إذا سمعوا بعض الأحكام الشرعية التي يعلن عنها الخطيب يتصورون أن ما استمعوا إليه لا يعدو أن يكون إحدى نظريات الخطيب نفسه. ومن هذا تكون لدى هؤلاء قابلة للرّفض والقبول، بل إنَّ بعضهم يتجاوز هذا الحد، فيعلن في المجالس عن لومه للخطيب فيما تضمنته إحدى خطبه، أو عدّة خطب من خطبه، خصوصاً إذا كان الحكم يتناول قضية منتشرة بين الناس وهم فيها مخالفون لحكم الله، فتستغرب هذه الطائفة أن ينهى الخطيب عما هو شائع في بعض الأوساط المنتسبة إلى الاسلام، أو يزعزع ما استقر فيهم من انحراف، لطول زمان الغفلة والاهمال.

فيا لله للخطباء في مثل هذه البيئات، وأين حال هؤلاء من حال السلف الذين كان العالم منهم بكل ما أتى عليه الخطيب إذا خرج من الجامع يقول مغتبطاً: (جزى الله فلاناً عني خيراً لقد ذكرني كذا وكذا، وزادني فهماً لكذا وكذا، ورغبني في كذا وكذا) فأين الناس من الناس...؟

2ـ تحريك مشاعر المستمعين:

إن عواطف المستمعين ومشاعرهم بحاجة إلى الإثارة، بمقدار حاجة عقولهم إلى الإقناع أو أشد، ومن هنا كان على الخطيب أن يخصص جانباً من اهتمامه لإثارة عواطفهم، ولإلهَابِهَا أحياناً، ولا تكون الإثارة ممكنة إلا بأمرين:

(أ) أن يكون الخطيب نفسه متحمساً للموضوع، ولا أعني بالتحمس أن يملأ الجوّ صراخاً، لأن بعض الصراخ قد يكون مجلبة

لتكـدير المستمعين، خصـوصـاً إذا كانـت العبارات لا تتـلاءم مع الصراخ المثير للإزعاج، ولا شك أن هذا التصرف إذا اعتـاده من يألفون سماعه فإنه يفقد التأثير فيهم عندما يكون الموقف يـدعو حقيقة إلى الانفعال الداعي إلى الضغط على بعض الكلمات أو الجمل لتبرز بـرنين خـاصّ، ينبه السـامعين إليها، ويقذف بها إلى أعماق مشاعرهم.

وليحـذر الخطيب الجهير الصــوت من رفع صـوتـه فــوق الحاجـة خصـوصاً إذا كـان يستعمل الجهاز النـاقل للصوت فإن ذلك يفلق أدمغـة المستمعين، ويدفعهم إلى التمثل بقول القائل:

(إن صاح فينا حسبت الصخر منحدرا والريـح عاصفـة والمـوج يلتطـم)

(ب) أن يكـون الخطيب مقتـدراً على نقل مشـاعره وأحـاسيسـه إلى السامعين، ولا بدّ من أن يراعي في هذا الأمر عدّة اعتبارات، من بينها:

■ أن يتحاشى الإغراق في الخيال والمبالغات.

■ وأن يطعّم المعاني بصورة ماديّة، لتقريبها من مشاعر السامعين.

■ وأن يقـوم بمقـارنـات بين عناصر الموضـوع أو بعض جـزئيـات العناصر، وبين مـا يماثلها ممـا هو واقع في نفـوس السامعين مـوقع القبول والتسليم، سواء في ذلك ما كان حبيباً لهم أو كريهاً عندهم، ليستعين بكل هذا على إبلاغ السامعين أقصى ما يستطيع من مشاعره، وليشخّص المعاني في أجلى صورة تأنس العقـول بتسليمها، وتأخـذ طريقهـا إلى الاستقرار في النفوس.

3ـ إثارة الحميّة في نفوس المستمعين:

على الخطيب أن يثير حمية المستمعين، ويهزّ مشاعـرهم هزّاً، وذلك عند حديثه على النقائص الشائعة في أوساطهم، كأن ينبّههم إلى أن كل نقيصة ما هي إلا كسب عظيم لأعداء الاسلام، لأن ذلك مندرج تحت قوله تعالى:

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيّئة يفرحوا بها﴾[1].

وأي سيئة أعظم من تخلخل ارتباط المسلمين بدينهم.. إنها ــ ولا شك ــ من أعظم المصائب التي يفرح بها أعداؤهم، وما رأيكم الآن في أناس يعملون أعمالاً تدخل السرور على أعدائهم؟ إنهم أناس ينهزمون دون قتال، وأيّ قيمة لأناس ينسلخون من مقوّماتهم شيئاً فشيئاً؟ لا شك أنّهم يحتسون سماً يميت منهم مقوّمات الحياة الحقيقية، ولا شك أن أمثال هؤلاء إذا طال بهم النوم استغرقوا في سبات الغفلة، فباتوا لا يُصغون إلى نداء من يسعى إلى إيقاظهم، وَتَعَرّضُوا بذلك إلى انتقام الله منهم.

﴿ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾[2].

4ـ مكانة شخصية الخطيب:

إن لشخصية الخطيب وسمعته أثراً لا ينكر في تأثّر السامعين بكلامه، وذلك راجع إلى جهده المتواصل، وإلى حرصه الدائم على تحسين مستواه بلا انقطاع.

فإذا استقرّ في نفوس الناس أنه كُفْءٌ لهذه المهمة، وظلوا يستفيدون منه استفادات لا تنكر، فإنه قد يخطب فيهم خطبة متوسطة المستوى، فيكون لها وقع في نفوسهم أكثر ممّا يكون لنفس الموضوع إذا سمعوه من خطيب آخر، ولو كانت خطبة غَيره على مستوى أعلى من خطبته، طالما كان الخطيب الآخر لا يتمتع لديهم بالتقدير الكافي لشخصيته.

وممّا قد يندرج في هذا الجانب أن لبسة الخطيب لها أثر في إبراز شخصيته، وتهيئة جوّ مناسب لتمتعه بأكبر قسط من التأثير.

---

(1) سورة آل عمران آية 120.

(2) سورة السجدة آية 22.

إن الاهتمام بمظهر الخطيب والداعي إلى الله هو أمر معروف منذ القديم، فقد قال الجاحظ: (إن إياس بن معاوية المزني، أتى حلقة لقريش في مسجد دمشق، فاستولى على المجلس، ورأوه أحمر دميماً، رثّ الهيئة قشيفاً، فاستَهَا نُوابه، فلما عرفوه اعتذروا إليه، وقالوا: الذنب مقسوم بيننا وبينك، أتيتنا في زيّ المسكين تكلّمنا بكلام الملوك)[1].

5ـ تجنب التعالي على المستمعين:

من أعظم عيوب الخطيب أن يتعالى على المستمعين إليه، سواء أكان ذلك تباهياً بعلمه، أم بتقواه، أم بكفاءته الخطابية، أم بأيّ شيء آخر، وسواء أكان تعاليه بطريق التصريح أم التلميح، ولقد قال أحدهم:

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن
خطل الكلام تقوله مختالا
واعلم بأن من السكوت إبانة
ومن التكلم ما يكون خبالا

وليبحث في أفعاله وأقواله حتى تكون كلها بعيدة عما يشتمّ منه أيّة رائحة التعالي، فإن ذلك مما ينفر السامعين منه، وبذلك يكون الخطيب مساهماً في الإعراض عن دعوة الحق، وليعتقد مع كل ما يتخذ من تنقية سلوكه، أنه متهم بالتعالي من بعض الناس، وربما آذوه، بغرائب الترّهات، وهذا الصنف من الناس لا يكاد يخلو منهم مجتمع، وفي مثلهم يقول الشاعر الحكيم:

(إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهّم)

---

(1) البيان والتبين ج 1 ص 95.

وليعلم أن من النـــاس من لا ينظـر إليـه إلا مــن خــلال أن الخطيب يعتقد أن لــه فضلاً عليهم، وهي - في الغالب ــ نظرة أقرانه إليــه، وهؤلاء يصدق عليهم قول القائل:

«من رأى الناسُ له فضلاً عليهم حسدوه».

فعلى الخطيب أن يتواضع لسـامعيه، وأن يكون قـدوة لهم في الاهتداء بما يدعو إليه من هدى الله ورسوله، متمثلاً بقول أحد الخطباء الصالحين:

(وقفـت لتذكــير ولـو كنــت منصفـاً
لـذكّرت نفسي فهي أحـوج للذكـرى)
(إذا لــم يكــن مني لنفــسي واعــظ
فيا ليت شعـري كيف أفعل في الأخرى)

6ـ الاشفاق على المستمعين:

على الخطيب أن يكون شفوقاً على المستمعين، وأن يعرب لهم أحياناً عما يجد من اشفاق عليهم.

إن هذه المصارحة من أعظم المؤثرات في النفوس، ولقد أدرك الرّسل عليهم الصلاة والسلام مقدار ما لهذه الوسيلة من أثر في من يدعونهم إلى الله، فكان نوح عليه السلام يقول لقومه:

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[1].

وهود عليه السلام قال نفس القول لقومه:

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[2].

وشعيب عليه السلام قال:

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾[3].

---

(1) سورة الأعراف آية 59.
(2) سورة الشعراء آية 5 13.
(3)سورة هود آية 84.

وللخطيب أن يقــول مثــــلاً : والله لأن تكــونـــوا مثــالاً للمسلمين البررة ، أحبّ إليّ من أن تكونـوا مثالاً لمن يتخلـون عن البرّ وهم يعلمون ، ولأن تكـــونـــوا أتقى لله وأحظى عنــده ، أحبّ إليّ من أن تكـــونـــوا غير حريصين على السعي إلى رضاه ، إلى آخر ما يشبه هذا الكلام ، خصوصاً إذا ربطه ببعض الأحداث التي ظهرت في بيئة المستمعين إليه .

7ـ الحرص على جودة الإلقاء :

لا شك أن محاسن الخطـابـة كثيرة ، ومن أهمهـا جـودة الإلقـاء ، ولا يبعد عن الصواب من يقـول : (إن الإلقاء الجيّد في الخطابـة يستأثر بها يعادل النصف من جميع محاسنهـا) فإن هذا القـول صحيح إلى حدّ بعيـد ، فكم من تعبير عذب أنيق ذهب سوء الإلقـاء بأناقته وعذوبتـه ، وكم من معانٍ رفيعة شريفـة أنزلها الإلقـاء السّيىء عن مستـواها الـرفيع ، وكم من أدلّـة ناصعـة مفحمة ، أتى الإلقاء المتهافت على أثرها فى النفوس .

فينبغي من أجل كلّ مـا تقـدم أن يحرص الخطيب على أن لا يضعف تأثر السامعين بكلامه .

ضعف تأثر السامعين

إن ضعف تأثير الخطيب في السامعين قد يكـون لأسباب خارجة عن الخطبة والخطيب، وقد يكون نـاتجاً عن الخطبة ذاتها، وقد ينتج عما يعرف الناس أحياناً من سلوك الخطيب في حياته.

فمن الأسباب الخارجة عن الخطبة والخطيب:

1 ـ أن توجد ـ بصفة دائمة ـ ضوضاء في الشوارع المحيطة بالجامع، وتتسرّب إلى داخله، فتشوّش على المستمعين هدوءهـم وإقبالهم على متابعة الخطيب.

وفي هـذه الحال يجب السعي لإزالـة كل مـا يحول دون استفـادة المستمعين، وذلك بتعاون أهل الصلاح، وتدخلهم المتواصل، حتى يتوفر الجوّ المناسب للاستفادة الكاملة من خطبة الجمعة.

إن من تعـاليم رسـول الله ﷺ أن من يقـول لصـاحبـه يـوم الجمعـة والإمام يخطب (أنصت) يعتبر لاغياً، ومن لغا فلا جمعة له.

فأنت تـرى أن هـذه الكلمـة الخفيفـة التي دعت إليهـا الحاجـة إلى الانصـات مـا حـذّر منها رسـول الله ﷺ إلاّ لإيجاد الجوّ المسـاعـد على الإنصات، والتفرغ الكامل للاستماع، حتـى يظفر الناس في هذا اليوم بأكبر قدر من الاستفادة المرجوة.

2 ـ أن تحدث داخل الجامع حركات تتكرر من بعض المصلين فتشوش على الآخرين راحـة استماعهم، ومن تلك الحركات مثـلاً معالجة فتح بعض الأبـواب من غير داع أكيـد، مع إحـداث صريـر أو قعقعـة، تلتفت إليهما

الرؤوس، ومنها نقل بعض البسط ونحوها خلال الصفوف، وقد يجتمع الأمران عند خطبة واحدة، وربما يشاهد الخطيب امرأة تتخلل صفوف الرجال، أو أطفالاً يضايقون المصلين ببعض الأفعال أو الأقوال.

وفي مثل هذه الأحوال يجب أن يقطع الخطيب بيانه، وينهى كل من يقوم بأي عمل يكدّر جوّ الانصات المطمئن، خصوصاً إذا تكرر العمل وآذى هدوء الخاشعين، ولقد دخل رجل مسجد رسول الله ﷺ وجعل يتخلل الصفوف، فقال له ﷺ: **(أجلس فقد آذيت وآنيت)**[1].

ولا يحسن بالخطيب أبداً أن يسكت عن أي حركة تؤذي المصلين، إذ إنها من المنكر وإذا لم ينه الخطيب عن المنكر فمن الذي يتولىّ ذلك النهي، وكل الناس عندئذ ملزمون بالانصات. ؟

3 ـ أن يكون حجم الجامع لا يفي باستيعاب جميع المصلين، فيجلس طائفة منهم في رحاب الجامع الداخلية أو خارجها، وليس لهم ما يقيهم لفح الشمس أو تساقط الثلج، أو طلّ المطر.

وفي مثل هذه الأحوال يجب على الخطيب أن يقصر الخطبة بالقدر الذي لا يلحق معه ضرر بمن امتلأ الجامع دونهم، لأن الرفق بالناس من تعاليم ديننا الحنيف، فقد دعا ﷺ لأناس، ودعا على آخرين فقال: **(اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق اللهم عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق اللهم به)**[2].

أما الأسباب الناتجة عن الخطبة فهي كثيرة، ويرجع معظمها إلى ترك الخطيب لمراعاة ما ينبغي أن تكون عليه خطبة الجمعة، وقد تقدم أكثر ذلك في الفصول السابقة من هذا الكتاب.

وأما الأسباب الناتجة عن ذات الخطيب فمنها:

---

(1) رواه أحمد وأبوداود عن عبدالله بن بسر.

(2) رواه مسلم فى صحيحة عن عائشة.

1 ـ أن تخالف بعض أفعاله شيئاً من أقواله، فإن ذلك يعرّضه للنقد الشديد، ويضعف التأثر به فيما يدعو إليه.

ولا يخفى أن المفروض في خطيب الجمعة أن يكون سليماً من العيوب، فضلاً عن أن يقوم بأخف المخالفات، ومن لازم مهمته أن يبحث في تصرفاته بعناية ويقظة، حتى لا تنزلق به الغفلة إلى ما لا يليق، فإن الخطر كل الخطر يكمن في مخالفة بعض أفعاله أي شيء من أقواله، فإن الفعل يهدم كل ما بناه القول، وتتبع الناس لسلوك الدعاة أمر قديم، قدم ظهور الدعوة إلى الله، فلقد كان رسول الله شعيب عليه السلام يقول لقومه:

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾(1).

والناس في جميع العصور قلّما يتفقون على أمر، ولكنهم يتفقون عل هذا الأمر، فقد نطق بلسانهم، وترجم عما في ضمائرهم من قال:

(يا أيها الرجل المعلّم غيره
هلاّ لنفسك كان ذا التعليم)
(لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم)
(اَبْدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيم)
(فهناك تُسْمَعُ إن وَعَظْتَ ويقتدى
بالقول منك ويقبل التعليم)

2 ـ أن يكون الخطيب غير كفء للمهمة التي يقوم بها.

■ إما لعدم تمكنه من الثقافة الدينية الكافية، ومثل هذا لا بدّ أن يكون ضرره أكثر من نفعه.

---

(1) سورة هود آية 88.

■ وإما لفقده أهمّ المؤهلات الخطابيـة ولو أنه على مستوى علمي لا بأس به، وخطر هذا أقل من خطر الأول.

■ وإما لأنه خال من المؤهلات العلميـة والخطابية، وكان المفروض في مثل هذا أن لا تسند إليه مهمة الخطابة بأي حال من الأحوال.

وينبغي لمن بيـدهم أمـور المسلمين أن يتقواْ الله في هـذا الأمـر، وأن يحرصـوا على إسناد خطـابـة الجمعة لـلأكفـاء دون سواهم معتبرين بقـول رسول الله ﷺ: (**من استعمل رجلاً على عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله، ورسوله، والمؤمنين**)[1].

---

(1) رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس.

مؤهلات الخطيب

من الدعاة من يدعو إلى الله بلسانه، فيحاضر أو يسامر، أو يدرّس أو يناقش، ومن الدعاة من يدعو إلى الله بقلمه، فيحرّر المقال أو يؤلّف الكتاب، ومن الدعاة من يتحرك في كلاَ الاتجاهين، وإذا كان للخطيب حظّ في مجال من مجالات الدعوة فإنه يمتاز عن غيره بشيء عظيم الأهمية، وهو التزامه للقيام بهذه المهمة في وقت محدّد على الدوام.

وكثيراً ما يقوم بعض الخطباء بإلقاء الدروس، أو بغيرها من كلّ ما له صلة بالدعوة إلى الله.

وأيّاً ما يكن نشاط الخطيب فإنه لا يرتفع إلى المستوى المرموق في ميدان الخطابة إلا إذا كان يتمتع بمجموعة من المقوّمات التي تؤهله لهذه المهمة في حياة الأمة.

إن تلك المؤهلات بعضها فطريّ في الانسان، وبعضها صناعي، يكتسب بالتعلم والممارسة المتواصلة.

المؤهلات الفطرية:

تنحصر هذه المؤهلات في عنصرين اثنين، وهما:

- ■ العقل السليم.
- ■ واللسان المبين.

ولقد قيل فيهما قديماً :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم تبق إلا صورة اللّحم والدّم

أما العقل المراد هنا، فهو الذي يتمتع صاحبه بالقدرة على البحث المركّز، ودقة الملاحظة، وجودة المقارنة بين الأشياء . وسلامة الاستنتاج، مع انتباه متواصل وبديهة نيرّة .

وبهذه المعطيات يقتدر على التصرّف بأمان في كل ما له علاقة بالتفكير، وكلّما كان أثير الحظّ منها، كان اقترابه من مستوى الكمال أكثر .

ورغم أنَّ الموهبة العقلية أمر فطري، فإنها تنمو بالصقل والتهذيب، والتدرّب المتواصل .

وأما اللسان المبين بالفطرة، فهو السليم من العيوب، بحيث يكون طلقاً لا يتلعثم، ولا يشوّه صفات الحروف، وإنما ينساب به الخطاب انسياباً مريحاً لصاحبه، ولكل من يستمع إليه .

فإن انضم إلى سلامة العقل واللسان صوت سمح صاف، غير هزيل، تمت عندئذ للخطيب أعزّ المؤهلات الفطريّة المطلوبة في هذا الميدان .

المؤهلات الصناعية:

إن أهمّ ما يتأكدّ في خطيب الجمعة من هذه المؤهلات أن يكون :

- واسع الاطلاع .
- متمكناً من قواعد اللغة .
- ممتلكاً لزاد لغويّ ثريّ .
- جيّد المعرفة لمقاطع الكلام .
- مقتدراً على التصرف بسهولة في البيان .

وإليك تفصيل القول في هذه المؤهلات:

سعة الاطلاع:

كلما كان الخطيب واسع الاطلاع، كان اقترابه من النجاح أكثر.

وليس المراد أن يطلع على الكتاب والسنة فحسب، لأن الكتاب والسنة هما سند كل خطاب ما في هذا الأمر شك، وإنما المراد، أن يطلع على جملة من أوثق التفاسير، وشروح السنة، وأن يلمّ بعلم مصطلح الحديث، وبالسيرة النبوية، ثم بأقوال الماضين من فقهاء الأمة، لأنهم قد خدموا هذا الدين على مدى قرون، وتمكنوا - في مجموعهم - من الاطلاع على ما لم يطلع هو عليه واستنبطوا أطرف النفائس، ولأنه إذا كان على حظ من الاطلاع على ما اختلف فيه أئمة المذاهب سلم من أن يأمر أو ينهى عمّا اختلفوا فيه، لأن ما اختلف فيه أولئك الأئمة لا يحسن أن يلزم الناس فيه بتحليل أو تحريم، ويشتدّ في ردّ ما لم يذهب هو إليه.

فإن مال إلى بعض تلك الأقوال المتقابلة، كان له أَنْ يصدع به، مع نسبته إلى أصحابه، حتى لا يتعرض إلى استنكار من لا يعرف من أقوال الأئمة إلا القول المخالف لما صدع به الخطيب.

وهذه النقطة كثيراً ما أثارت نزاعات لا داعي لها، ووسّعت شقة التفرق بين الأمة، ولو في مناطق محدودة، وما نشبت تلك النّزَاعَاتُ إلا من عدم مراعاة الخطيب لما يستدعيه الموقف في بعض الأوسَاط التي لا تعرف إلا قدراً محدوداً جداً من علوم الدين، فضلاً عن أن تلمّ بما ذهب إليه القدماء من جلة العلماء الذين أجمعت الأمة على فضلهم، ودقة نظرهم، وعلى أن مذاهبهم لم تكن مَبْنِيَّةً على دواع من الهوى، أو الرّغبة في الخلاف، وإنما كان ذلك منهم على بيّنة وبصيرة، وابتغاءً لرضوان الله.

ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم في حياة رسول الله ﷺ قد

اختلفـوا حين وجّههم إلى بني قـريظة، وقـال لهم: (**من كـان يـؤمن بـالله واليوم الآخـر، فلا يصلّ العصر إلا في بني قـريظة**) فلَمّا تـوجّهوا تلقـاء بني قريظة أدركتهم صـلاة العصر، فأراد بعضهم أن يصليها أثناء السير، لأنهم فهموا عن رسول الله ﷺ أنه أراد استحثاثهم على سرعة السير فقط، ولكن طائفـة أخرى امتنعت من أن تصلي إلا في بني قريظـة، تمسكاً بظاهـر القول النبـوي الشريف، ولما أخبروه ﷺ بما ذهب إليـه كل فـريق، لم يعب لا على هـؤلاء، ولا على هـؤلاء، مع أنهم رضي الله عنهـم قـد اختلفـوا في تطبيق العمل بقولـه ﷺ، ولكنّ كلاً من الطـائفتين أرادت الخير باجتهادهـا، وما كـان في تصرفهـا أيـة رائحـة لاتبـاع الهوى، ولـو حصل بعض ذلك منهم لأطلع الله رسوله عليه، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يقرّهم على باطل.

وينبغي ألا نفهم من هـذه الحادثـة أنّ لكلّ إنسان أن يـدّعي أنّ لـه فهماً خـاصاً لبعض نصـوص الكتاب أو السنـة دون أن يكون مـؤهلاً لـذلك. لا بمعـرفتـه للعلـوم الآليّـة، ولا لأسبـاب النـزول، وأسبـاب الحديث، ودرجاته، ولا لِمَا في الكتاب والسنة من نسخ، وعموم وخصوص، وإطلاق وتقييد، بالإضافة إلى معرفة طريقة العمل عند تعارض النصوص.

فإذا لم يكن الخطيب مُلِماً بهذه العلـوم، ولا ذا قـدرة على الاستفـادة من المؤلفات الموضـوعة فيها، ـ كي يقترب من الالتحـاق بأهل هذا الشأن ـ فليحذر من التسرع إلى القول بما يفهمه فهماً خاصاً، أو التسرع إلى ردّ ما فهمه غيره من أهل الاختصاص، فيندرج عندئذ تحت قول الله تعالى:

﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله**﴾[1].

والواجب عليه أن يقف عند الحدّ الذي بلغه المتضلعون منهم.

وليس هذا من بـاب الحجر على العقول، فإن الله سبحانـه عاب من لا يتدبّـرون، وأثنى على المتفكرين، ولكن ذلك مع الاستعـداد المطلوب،

(1) سورة يونس آية 39.

فإن كل علم له أدوات معينة واصطلاحات خاصة ضبطها العلماء، ولا بد من معرفتها حتى تتيسر الاستفادة من تلك العلوم، فعلى كل من يسعى إلى منافسة علماء الدين من قدماء هذه الأمة، أن يستعد لهذا الأمر باتخاذ الوسائل، واستكمال الأدوات، وليتوكل على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

على أنّه يمكن للخطيب أن يقتصر على الاطلاع الكافي بخصوص الموضوع الذي يريد تناوله بالخطاب، فيدرس ما ورد بشأنه في الكتاب والسنة، وما فهمه أعلام المفسرين وشراح السنة، حتى ينتهي إلى الوثوق بمعرفته للموضوع معرفة كافية.

ويجمل بالخطيب مع هذا أن يتزود بكل ما يجعله مقتدراً على الدعوة إلى الله على بصيرة، وأن يدرس بعناية حركات التنصير والاستعمار، وأنواع الشبهات التي أثيرت وتثار حول الاسلام عقيدة وشريعة ويطّلع على كافة المذاهب التي تعمل على هَدْمهمَا.

ومن تمام ثقافته المتصلة بمخاطَبَة الجماهير ــ في العصر الحديث ـ أن يطلع بما فيه الكفاية على العلوم المتصلة بالحياة العامة، كعلوم الاجتماع، والاقتصاد، والمذاهب السياسية، وتاريخ الأمم، وعوامل تطورها، وأسباب انهيار الحضارات، وليعلم الخطيب أن نجاحه في مهمته يتضاعف بمقدار تضلّعه من علوم الدين، وإلمامه بمختلف العلوم الانسانية، واطلاعه على أحداث العالم بلا انقطاع.

التمكن من قواعد اللغة:

من أعظم عيوب الخطيب أن يستهين بمراعاة قواعد اللغة، لأن اللحن قد يعوق السامعين عن الفهم، وقد يشغل بعضهم بالتدبّر فيما كان ينبغي أن يصاغ عليه التعبير، وقد يتحوّل بهم ذلك إلى التفكير في كفاءة

الخطيب، وخصوصاً إذا تكرر ذلك منه، فتحول هذه اللّفتات بينهم وبين متابعة الموضوع بلا انقطاع.

إن مثل هذا التصرّف ما هو إلاّ تشجيع لطائفة من المستمعين على الخروج من مجال اهتمامهم بموضوع الخطبة إلى التعلق بما يهدر استفادتهم منها الاستفادة التامة.

امتلاك الزاد اللغوي الواسع:

تزوّد الخطيب بأكبر زاد لغوي هو الضمان لاقتداره على تحديد المعاني بدقة، وعلى تصريف الكلام في كل مجال بدون عائق.

وعلى الخطيب ـ مع ذلك ـ أن يواصل الاطلاع على مختلف الأساليب البيانية الجيّدة، وأن يتأمل من مواطن الجودة فيها، وأن يعمل على احتذاء أرشقها لفظاً، وأطرفها معنى، وأجودها أسلوباً، على أن يكون اهتمامه باللفظ والمعنى على سواء.

قال أبو علي الحسن بن رشيق: (اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سَلِمَ المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصاً للشعر[1] وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إنْ ضعف المعنى واختل بعضه كان للّفظ، من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح)[2].

ويتجاوز فخر الدين الرازي هذا الحدّ فيقول: (الكلام له جسم، وهو اللفظ، وله روح، وهو المعنى، وكما أن الانسان الذي نوّر روحه

---

(1) إن كلام ابن رشيق هنا مقتصر على الشعر بناء على ما اقتضاه موضوع كتاب العمدة. والواقع أن رأيه منطبق تماماً على منظوم الكلام ومنثوره.

(2) العمدة ج 1 ص 80.

بـالمعرفـة ينبغي أن ينـوّر جسمه بـالنظافـة، كـذلك الكلام، ورب كلمـة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها)[1].

فأنت تـرى أن البيان الـرفيع عنـده يتمثل في اللفظ النظيف الأنيق، وفي المعنى الكريم المستنير، لا في مجرد الصحّة والسلامة.

وإذا ارتفع المتكلم إلى هذا المرتقى، كانت عثراته النّادرة مغتفرة فيه، قال أبـو العباس المبرد: (وقـد يضطرّ الشاعـر المفلق، والخطيب المصقع، والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق، واللفظ المستكره، فإذا انعطفت عليه جَنْبَتَا الكلام غطتّا على عواره، وسترتا من شينه)[2].

وليعلم كل متعاط للخطـابة أن الاطلاع على كلام البلغـاء ومواصلة الاستفـادة منـه، أمـرٌ لا يمكن الاستغنـاء عنـه، يقـول ابن الأثير في المثل السـائر: (إن في الاطلاع على أقـوال المتقـدمين من المنظـوم والمنثور فـوائد جمة، لأنّه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكـارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين تـرامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشيـاء مما تشحّذ القـريحة، وتزكي الفطنة، وإذا كـان صاحب هـذه الصناعة عـارفاً بها، تصير المعـاني التي ذكـرت وَتُعِبَ في استخراجهـا كـالشيء المنقّى بين يديـه، يأخذ منه مـا أراد، وأيضاً فإنـه إذا كان مطّلعاً على المعـاني المسبوق إليهـا، قد ينقـدح لـه من بينهـا معنى غريب لم يسبـق إليه ومن المعلـوم أن خواطـر الناس ــ وإن كانت متفـاوتة في الجودة والـرداءة ـ فـإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطّاً عنه إلا بشيء يسير)[3].

أمـا الاستفــادة من الأسلـوب القـرآني فهي أجـل وأعظم، وميـدانها أرحب وأعجب، ذلك لأنّ أسلوبه العـزيز يمتاز بروائع، لا حـدّ لأبعادها،

(1) مفاتح الغيب ج 1 ص

(2) الكامل ج 1 ص 14.

(3) المثل السائر ج1 ص 29.

ولتـوضيح شيء منها، يكفي أن نتأمل في ميـزتين عجيبتين فيه، يحدثنـا عنهما علمان من أعلام البيان.

أما الميزة الأولى فهي استعماله اللفظ القويّ الجزل في مقامات معينة، واستعماله اللفظ اللطيف الرقيق في مقامات أخرى، ويحدثنا عن هذه الميزة ابن الأثير في المثل السائر، مقـابلاً بين الجزل والرقيق، وعـارضاً نماذج من استعمالهما في الكتاب العزيز، فيقـول: (لست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيـاً متوعّراً، عليـه عنْجَهيَّةُ البداوة، بل أعني بـالجزل أن يكون متيناً على عذوبة في الفم، ولذاذة في السمع، ولذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سَفْسَافاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس.

وسأضرب لك مثـالاً للجزل من الألفـاظ والـرقيق، فأقول: أنظـر إلى قوارع الألفـاظ عند ذكـر الحساب، والعـذاب، والميزان، والصراط، وعند ذكـر الموت، ومفارقة الدنيـا، وما جرى هذا المجـرى، إنك لا ترى شيئاً من وحشي الألفاظ، متوعّراً.

ثم انظر إلى ذكر الرحمة، والـرأفة، والمغفرة، والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب المذنبين، والتّائبين من العبـاد، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسافاً.

فمثال الأول وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى:

﴿ونفخ في الصـــور فصعق مـن في السمـــوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثـم نفخ فيه أخرى فـإذا هم قيام ينظرون، وأشرقـت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهـداء، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمـون، ووفيت كـل نفس مـا عملت وهـو أعلـم بما يفعلـون، وسيق الـذين كفـروا إلى جهنم زمـراً، حتى إذا جاؤهـا فتحت أبـوابها، وقـال لهم خـزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلـون عليكم آيـات ربكم، وينذرونكم لقـاء يـومكم هذا؟ قـالوا بلى، ولكن حقـت كلمة العـذاب على الكافـرين، قيل

ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المتكبرين، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم، أجر العاملين﴾[1].

قال ابن الأثير: فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار والجنة، وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة، على ما بها من الجزالة.

وكذلك ورد قوله تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾[2].

ومثال الثاني، وهو الرقيق من الألفاظ، فقوله تعالى في مخاطبة النبي ﷺ:

﴿والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى﴾ . . . إلى آخر السورة . .

وكذلك قوله في ترغيب المسألة:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان﴾[3].

وهكذا ترى سبيل القرآن في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقّة[4] . . .

فالألفاظ الجزلة تتخيل كأشخاص عليها مهابةٌ ووقار، والألفاظ

(1) سورة الزمر الآيات من 68 إلى 74 .

(2) سورة الأنعام آية 94.

(3) سورة البقرة آية 186 .

(4) المثل السائر صفحات 168، 169، 170 .

الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج.

وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته لك ههنا، وجدتني قد دللتك على الطريق، وضربت لك أمثالاً مناسبة[1].

وأما الميزة الثانية التي استأثر بها الأسلوب القرآني فهي الإبداع العجيب في انتقاله من فن إلى فن بمنتهى السلاسة والطرافة، بحيث لا يشعر المرء بانتقاله من فن إلا حالما يندمج في فن آخر، ويحدثنا عن هذه الميزة الرائعة سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله فيقول: (ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن، وهو بداعة تنقلاته من فنّ إلى فن بطرائق الاعتراض، والتنظير، والتذييل، والاتيان بالمترادفات عند التكرار تجنباً لتكرار الكلم، وكذلك الاكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية، فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود، فيكون السامعون في نشاط متجدّد بسماعه، وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون، أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير﴾[2].

بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة، العزيز مثلها في شعر العرب، وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة، وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمتنقل إليه هي في منتهى

---

(1) نفس المصدر ص 178.

(2) سورة البقرة الآيات 17، 18، 19، 20.

الرقة والبداعـة، بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقالـه إلا عند حصوله، وذلك التفنن ممّا يعين على استماع السامعين، ويدفع سـآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن، استكثار أزمان قراءته، كما قال تعالى:

﴿**علم أن لن تحصوه فتاب عليكم، فاقرأوا ما تيسر من القرآن**﴾[1].

فقوله مـا تيسّر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسـب أقواله، وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير، وعون على التكثير[2].

معرفة مقاطع الكلام:

إن مقاطع الكلام هي التي يحسن أن يقف عندها الخطيب، فيتنفس، ثم يواصل كـلامه، وإن معـرفة المقـاطع ومراعاة الموقـوف عندهـا، أمران لازمـــان لكل خطيب، حتـى لا تلتبس المعـــاني على الســـامعين وإن لهما ـ فوق ذلك ـ أثراً واضحاً في تيسير الفهم لما يلقى عليهم.

إن طائفة ممن يقرأون الخطب من الـورق لا يراعون مقاطع الكلام، ويكثـر هذا منهم إذا لم تكن الخطب من تحريـرهم، ويتفاقم الخطـر فيما إذا كانوا غير فـاهمين لما يعنيه محرر الخطبة، ومن هنا يضطـرب فهم السامعين أو يعسر على الأقل.

فإذا أراد أحد أولئك الخطباء أن يقرأ مثل هذا الكلام:

(وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ المذكورون في الخير إلا شبابا؟

شباباً والله مكتهلون في شبابهم.

غضيضة عن الشر أعينهم.

ثقيلة عن الباطل أرجلهم.

أنضاء عبادة).

---

(1) سورة المزمّل آية 20.

(2) من تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير ج 1 ص 102، 103.

ربما قرأه مقطعاً بأوقاف رديئة على النحو التالي :

(وهل كان أصحاب رسول الله المذكورون

في الخير إلا شبابا .

شباب والله مكتهلون .

في شبابهم غضيضة عن الشر .

أعينهم ثقيلة عن الباطل .

أرجلهم أنضاء عبادة) .

وهكذا يتبين الفرق الشاسع بين جمال المعنى ، ونصاعة التعبير ، المتوفّرين في الكلام ، وبين ما لحقهما من تشويه فظيع ، لعدم إدارك الخطيب لما يجب عليه من معرفة مقاطع الكلام ، والالتزام بالوقوف عندها .

القدرة على التصرف البياني:

الخطيب المحنّك هو الذي استكمل تدربه على التصرف البياني بسهولة ، فيستخدم الإيماء حيناً ، والاشارة حيناً ، والتصريح ببعض الصفات الجارحة حيناً ، كما يستطيع أن يلطّفها ، فيدفع أصحابها إلى التخلّي عنها بسهولة ، وأن يختار من البيان ما يتناسب مع كل موقف .

فإذا ذكر مثلاً بعض التصرفات التي يوصف أصحابها عادة بأنهم أغبياء ، استطاع أن يصفهم بأنهم في حاجة إلى قدر من الانتباه ، ليرتفعوا إلى ما تطمح إليه الهمم العلية من مقامات الكمال .

وإذا أراد وصف الأغنياء المحجمين عن البذل بأنهم أشحاء بخلاء ، أو بأنهم قد استجابوا لنداء الشيطان الذي يعدهم الفقر ، ويأمرهم بالفحشاء ، كان يستطيع أن يصفهم بأنهم أناس شغلتهم فضيلة عن فضيلة ، هؤلاء قد اشتغلوا بالكسب ، فأعفوا نفوسهم من الاحتياج ، وأراحوها عندما أَتعبوها ، ولكنّ هذه الفضيلة العظيمة قد شغلتهم عن اكتساب فضيلة أعظم ، وهي الاعلان عن شكر الله ببذل القليل مما أنعم الله عليهم ، فنفعوا

المحرومين من إخوانهم، ثقة بأن ذلك هو الكسب الأعظم، وهو الذي سيجدونه مدّخراً عند الله سبحانه.

وهكذا يتبين الفرق الشاسع بين المنهجين وبمثل هذا التصرف يمتلك الخطيب عنصراً من أهمّ عناصر التأثير.

على الخطيب أن لا ينسى:

على الخطيب مع كل ما تقدم أن لا ينسى اثني عشر أمراً:

1 ـ أن مهمة الإرشاد هي في الأصل وظيفة الأنبياء المرسلين، فإنهم عليهم الصلاة والسلام ما أرسلهم الله إلا لهداية الناس، وإيقاظهم من الغفلة، ثم إن هذه المهمة العظيمة قد ائتمن الله عليها من كانوا لها أهلاً من ورثة الأنبياء، فقال سبحانه:

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[3].

وقال ﷺ: **(والذي نفسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم)**[4] وقال ﷺ: **(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه،**

---

(1) سورة التوبة آية 122.

(2) سورة آل عمران آية 104.

(3) سورة فصلت آية 33.

(4) رواه الترمذي عن حذيفة.

لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[1].

2 ـ أن عمر بن الخطاب نصح سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما فقال: إذا أحبّ الله عبداً حبَّبه إلى خلقه، ثم قال له فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل الذي لله عندك)[2].

3 ـ إن أهل العلم بالدين يعلمون أن كل راع مسؤول عن رعيته، ويعلمون أنهم رعاة الأمة في دينها، إذ هم مطالبون بتصحيح عقيدتها وتوجيهها إلى تقويم سلوكها على المنهج الذي شرعه الله، فلقد قال سبحانه: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيّننّه للناس ولا تكتمونه﴾**[3].

والسكوت على الباطل كثيراً ما يكون تشجيعاً على إقراره، فقد قال عليّ رضي الله عنه (لا قيام للباطل إلا في غفلة من الحق) وقد قيل:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة   ونام عنها تولىَّ رعيها الأسد

فعلى الخطيب أن يكون مستيقظ الفؤاد، متواصل الانتباه لكل الأحداث، يصدع بالحق في شجاعة وثبات، ولا يخاف في الله لومة لائم، ففي الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنّه قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم).

على أن السكوت أحياناً قد يكون مداراة، والمداراة مطلوبة بقدر

---

(1) رواه مسلم أبي هريرة.

(2) يشير رضي الله عنه بالفقرة الأولى إلى الحديث المشهور وهو: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل أن الله يحب فلاناً فأحبّه، فيحبه جبريل، فينادي فى أهل السماء: إن ا لله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، رواه الشيخان عن أبي هريرة ويشير عمر بالفقرة الثانية إلى ما رواه الدارقطني عن أنس، نصّه: **(من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده)**.

(3) سورة آل عمران آية 187.

الضرورة، وقد تتأكّد إذا كان الإنكار يفضي إلى محذور أشدّ، وإلى منكر أعظم، على أن لا تتحوّل المداراة إلى مداهنة أو مجاراة.

ومع ذلك فينبغي انتظار أول فرصة تغتنم للقيام بهذا الواجب العظيم.

فللأمور مواقيت مقدرة وكل أمرٍ له حدّ وميزان

على أن من الخير أن يعمل على إيجاد الفرصة إذا استطاع، ليفوز من الله بأجرين عظيمين.

4 ـ أن من الواجب عليه أن يتحاشى الخوض في دقائق علم الكلام، حتى لا يفتن المستمعين بما لا يطيقون فهمه، مخافة أن تختلّ بذلك عقيدتهم، ويصعب من بعد ذلك إصلاحها، ولقد روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (**ما أحد يحدّث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم**).

5 ـ أن يتمسك بالأناة، وعدم استعجال النتائج، وأن لا يحمله تأخرها على الغضب أو اليأس، فلقد أرسل الله نوحاً إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم فيها إلى الله، فما سئم، ولا كلّ ولا ملّ، ومع طول هذا الأمد فلم يؤمن معه ﷺ إلا قليل، والله سبحانه يقول لنبينا ﷺ:

﴿**فذكّر إنما أنت مذكّر، لست عليهم بمسيطر**﴾[1].

6 ـ أن يهتمّ بالخطبة الثانية مثلما يهتم بالخطبة الأولى، ولا يكون كالذين يلتزمون في الثانية نصّاً لا يتغيّر.

وله أن يجعل الثانية امتداداً لموضوع الأولى، كما له أن يتناول فيها موضوعاً آخر، ومن المستحسن أن يأخذ بهذه الطريقة مرة وبتلك مرة

(1) سورة الغاشية آية 21 و22.

أخرى، تبعاً لما تتطلبه المواقف، وما تقتضيه المواضيع المختلفة.

7 ـ أن يحترم كرامة المصلين، فلا يعتمد على أن من المفروض عليهم أن يصلوا الجمعة، فمن أجل ذلك يرى أن عليهم أن يحضروا الخطبة وأن ينصتوا إلى كل ما يقدم إليهم سواء استفادوا أم لم يستفيدوا، بل عليه أن يبذل أقصى ما يستطيع، ليستفيدوا أعظم الاستفادة.

8 ـ أن يحذر من أن يتخذ الخطبة وسيلة للثأر ممّن يعاديه عداوة شخصية.

إن بعض الخطباء إذا أساء إليه شخص يبادر إلى إلقاء خطبة يتناول فيها تلك الاساءة، ويهاجم خصمه، بما يشفي به غليله، وليست هذه الطريقة إلا إحدى الحماقات التي يتصرف بها بعضهم، حتى عرفوا بأنهم أناس مع حظوظ أنفسهم.

نعم إن تلك الاساءة قد تكون تنبيهاً من الله للخطيب على معالجة أمثالها، وذلك من فضل الله عليه وعلى الناس، أما أن يتناولها هي بذاتها، ثم يتناول من صدرت عنه بالوصف الكاشف والنعت المُحَدِّدِ، فإن ذلك ليس إلا نوعاً من العربدة التي تتنزّه عن مثلها المنابر.

9 ـ أن من واجبه أن يتعرض بالنقد لبعض الأوضاع، لكن من غير أن يؤذي أحداً بمس كرامته، فيصفه بأوصاف تعيّنه للسامعين تعييناً تاماً، حتى كأنه سماه باسمه الخاص، وليكن مقتدياً برسول الله ﷺ إذْ كَانَ يقول في مثل هذا الموقف (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا).

10 ـ أن يحذر من التوكّؤ على تعبير واحد، يكرره من حين إلى آخر، ليملأ به الفجوات التي تفصل بين أجزاء الكلام، فيصبح ذلك التعبير حشواً ينحط به مستوى الخطبة، وقد يضايق المستمعين، ويتضاعف ضجرهم بمقدار ما يكثر من الاتكاء على ذلك التعبير.

وأنواع الاتكاء التي يعتادها بعض الناس كثيرة، منها قولهم:

ـ أليس كذلك؟
ـ شايفين؟
ـ هل فهمتموني؟
ـ على كل حال.
ـ ليس عندي ما أقول لكم أكثر مما قلت. (ثمّ يستمر في القول).

وتتكرر أمثال هذه التعابير الحشوية بمناسبة، وبدون مناسبة.

وقد يكون الاتكاء على سعال مفتعل، أو نحنحة مستمرة بلا موجب.

إنّ هذا الاتكاء ونحوه ما هو إلا نوع من الكلال في المقال الذي عناه أبو اليقظان بن حفص فيما قال:

أعوذ بالله من الاهمال   ومن كلال الغرب في المقال
ومن خطيب دائم السعال

11 ـ أن يجتنب الرجوع إلى القواميس في ما يشكل عليه من الألفاظ النبوية، لأنّ التعابير النبوية كثيراً ما تكون لها دلالات خاصة قد لا تنطبق عليها المعاني اللغوية المجردة.

فإذا أشكل عليه لفظ فعليه أن يرجع إلى المؤلفات الخاصة بغريب الحديث مثل كتاب (النهاية) لابن الأثير.

12 ـ أخيراً على الخطيب أن لا يخالف فعله قوله، حتى لا يتعرض إلى التأنيب الوارد في قول الله تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾[1] ولا إلى المقت الوارد في قول الله سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[2] ولا إلى الوعيد الوارد في ما رواه الشيخان عن

(1) سورة البقرة الآية 44.
(2) سورة الصف الآيتان آية 2 و 3.

أسامة بن زيد رضي الله عنه أنـه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه[1] فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكـر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عـن المنكر وآتيـه) ولا إلى الوعيد الـوارد في ما رواه ابـن حبان في صحيحه عن أنس بـن مالك رضي الله عنه أنّـه قال: قـال رسول الله صلّى الله عليـه وسلم: (رأيت ليلـة أسري بي رجالاً تقـرض شفـاههم بمقـاريض من النار، فقلت من هـؤلاء يا جبريل؟ فقـال: الخطباء من أمتك الـذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون).

كم تستغرق خطبة الجمعة من الوقت؟

إنّ الزمن الذي تستغرقه خطبة الجمعة هو زمن غير مقدّر بدقة، أو بما يقرب من الـدقة، مع أنّ هناك حقيقة علميّـة تتردّد على الألسنة، وهي أنّ من السنة قصر خطبة الجمعة، فلقد بيّـن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن قصرهـا من علامـات تمكّن الخطيب من الفقه في الـدين، كما يتبين ذلك في الحديث الـذي رواه مسلم في كتاب الجمعـة من صحيحه عن أبي وائل أنّـه قال: خطبنـا عمار فأوجز وأبلغ، فلمّا نزل قلنـا: يا أبا اليقظـان لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست ـ أي أطلت قليـلاً ـ فقال إنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (إنّ طول صـلاة الرجل وقصر خطبته مئنّة من فقهه، فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، وإنّ من البيان سحرا).

وإذا كان قصر الخطبـة يعتبر من كمالها فكم عدد الـدقائق التي ينبغي أن لا يتجاوزها الخطيب حتى تتصف خطبته بالقصر المطلوب؟

---

(1) الأقتاب جمع قِتب بكسر فسكون وهي الأمعاء وتندلق تخرج.

لقـد انتشر الجدل حـول ما يمكـن اعتباره طـولاً أو قصراً، لأنّ مـا تعتبره طائفة من الناس قصراً يعتبره آخرون أطول ممّا ينبغي.

إنّ تحديد المقدار الزمني لخطب الـرسول صلّى الله عليه وسلم لم ينقل إلينا نقلاً ينتهي به الخلاف أو يحول دون ظهوره.

ومن هنـا صار كلّ من لـه وجهة نظـر خاصـة في هذه القضية يـرفع صـوتـه ملحّاً على أن لا يتجـاوز زمن الخطبـة مـا يراه هـو، ويـرمي غيره بالخطأ، من أجل تجاوزه حدود السنة. . .

الواقع أنّ القصر أمر نسبي غير مضبـوط بالدقة الكـافية، ولكننا إذا بحثنـا في الآثار النبـويـة الصحيحة فإنّنـا نظفـر بها يقـربنا كثيراً من تحديـد الزمن الذي كانت تستغرقه خطبة النبي صلّى الله عليه وسلم، ويتبين ذلك في مـا رواه كلّ من الإمـام أحمد ومسلم وابن أبي شيبـة، وأبي داود والنسـائي وابن مـاجة والبيهقي، فجميع هـؤلاء رَوَوْا بأسـانيدهم إلى أم هشـام بنت حـارثة رضي الله عنهـا أنّها قالت: (مـا أخـذت ق والقرآن المجيـد إلا من لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلم، كـان يقرأ بها كلّ يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

كما روى ابن سعـد عن خولـة بنت قيس الجهنية رضي الله عنهـا أنهّا قالـت: (كنت أسمع خطبة رسـول الله صلّى الله عليه وسلم يـوم الجمعة، وأنا في مـؤخر النساء فأسمع قـراءته (ق والقرآن المجيـد) على المنبر وأنا في مؤخر النساء.

إنّنا إذا تأملنا في هذين الحديثين فإنّنا نظفر بمجموعة من الحقائق، وفي طليعتها الأربع التالية:

الحقيقة الأولى:

هي أنّ السر في اختيار الـرسول صلّى الله عليـه وسلم لهذه السورة في

العظة والتذكير قد يكون ـ والله أعلم ـ راجعاً إلى اشتمالها على كثير من عناصر الايمان وتتمثل تلك العناصر ـ باختصار ـ في ما يلي :

1) ـ بيان حال المتعجبين من كون الرسول منهم، ولا يكون الرُّسُل إلا بشرا.

2) ـ إثبات البعث والحساب .

3) ـ الاستدلال بمظاهر الكون على عظمة المبدع القادر على البعث بعد الموت .

4) ـ عرض طائفة من منن الله على عباده في هذه الدنيا .

5) ـ لفت الانتباه إلى مصائر المكذبين من الأمم السابقة .

6) ـ إشعار الانسان بأنّه مراقب حتى في خطرات قلبه .

7) ـ تذكيره بسكرة الموت التي لا مفرّ منها .

8) ـ تحذيره من متاهات الغفلة عن المبدأ والمعاد .

9) ـ عرض بعض المشاهد من يوم القيامة .

10) ـ بيان نماذج من جزاء المجرمين والمؤمنين .

11) ـ تسلية الرسول صلّى الله عليه وسلم وحثّه على ملازمة الصبر والذكر .

12) ـ دعوته صلّى الله عليه وسلم إلى مواصلة التذكير أمّا الحساب فهو على الله .

وإنّ هذه السورة إذا قرأها الانسان في تدبّر وأناة، وتحسّس ما يجد من نفسه عند تلك التلاوة، فإنّ السورة ستنقله إلى عالم مليء بما يوقظ أشدّ الناس استغراقاً في خضمّ الغفلات .

الحقيقة الثانية :

هي أنّه صلّى الله عليه وسلم كان يـواظب على قراءة هذه السورة (في كلّ يوم جمعة) حتى حفظتها أمّ هشام، بل وحفظها غير أمّ هشام من تكرار الرسول لها في كلّ يوم جمعة إذا خطب الناس .

الحقيقة الثالثة :

هي أنّنا نعلم أنّ مقدار سورة (ق) يزيد على ربع حزب .

الحقيقة الرابعة :

هي أنّ سورة (ق) ما هي إلا جزء من إحـدى الخطبتين، فإذا تذكرنا أنّ قراءتـه صلّى الله عليه وسلم كانت تـرتيلاً كما أمره الله، وأنّـه كان يقطع قـراءتـه آية آيـة كما روى ذلك الترمـذي عن أمّ سلمـة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وأنّه كـان يمدّ صوته بالقـرآن مدّاً كما روى ذلك أحمد والنسائي عن أنس بن مـالك رضي الله عنـه . إذا تصوّرنـا كلّ ذلك أمكن لنـا أن نقترب بعض الاقتراب من التقـدير المناسب للـزمن الذي كـانت تستغرقـه خطبة النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم الجمعة وهو زمن يتراوح بين ثلث ساعة وبين ما يزيد عليها قليلاً، والله أعلم .

وإذ قد تبين الزمن المقدر للخطبـة على وجه التقريب فليس للخطيب أن يتمسك به في كلّ الظروف، فقد يكـون حجم الجامع لا يفي باستيعاب جميع المصلين، فيجلس طـائفـة منهم في رحـاب الجامع الـداخليـة أو خارجها، وليس لهم مـا يقيهم لفح الشمس أو تساقط الثلج أو طلّ المطر، ولعلّ من أولئك من كـان في ذلك الـوضع منـذ زمن وهـو ينتظـر صعـود الإمام إلى المنبر .

ففي مثل هـذه الأحوال يجب على الخطيب أن يقصر الخطبـة بالقـدر الـذي لا يلحق معـه ضرر بمن امتلأ الجامـع دونهم ، لأنّ الرفق بـالنـاس من أوكد تعـاليم ديننا الحنيف ، فقـد دعا صلىّ الله عليـه وسلم على أناس ، ودعـا لآخـرين فقـال : (اللهم مـن ولي من أمـر أمتي شيئـاً فشقّ عليهم فـاشقق اللهم عليـه ، ومن ولي من أمر أمتـي شيئاً فـرفق بهم فـارفق اللهم به) .

كما أنّه ليس من المعقول أن يتنـاول الخطيب مسألة ذات أبعاد محدودة من شأنها أن تُؤَدَّى في بضع جمل ، ثمّ يظـلّ يكررّ القول فيهـا بنفس الأبعاد والحدود التي رسمها للمسألة في أول الخطبة من غير أن يأتي بإضافة مفيدة ولم يكن ذلك التكـرار المضجر إلا مـن أجل الحرص على استغراق الـزمن المقدّر للخطبة طبقاً لما تمّ استنتاجه من النصوص السابقة .

هذا والله سبحانه وليّ التوفيق وله الحمد أوّلاً وآخراً ،
وصلىّ الله على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي
وعلى آله وصحبه وسلم .

القسم الثاني

نماذج من عيون الخطب



(1)

من خطب رسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد عن أبي حرة الرّقاشي عن عمه، قال:
كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق أذود عنه الناس، فقال:

«يا أيها الناس، هل تدرون في أي شهر أنتم؟ وفي أيّ يوم أنتم؟ وفي أي بلد أنتم؟»

فقالوا في يوم حرام، وبلد حرام، وشهر حرام.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه».

ثم قال: «اسمعوا مني تعيشوا، ألا، لا تظلموا، ألا، لا تظلموا ألا لا تظلموا، ألا، لا يحلّ مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة، وإنّ أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، ألا وإنّ كل ربا في الجاهلية موضوع، وإنّ الله عز وجل قضى أن أوّل ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، ألا وإنّ الزمان قد استدار كَهَيْئَتِهِ يوم خلق الله السموات والأرض».

ثم قرأ:

﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيّم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾[1].

«ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم، واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنّ لهن عليكم حقاً، ولكم عليهنّ حقاً، أن لا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرّح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة من الله عزّ وجل، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها».

وبسط ﷺ يديه وقال: «ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟» ثم قال: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلّغ أسعد من سامع».

(2)

أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء، ألا إنّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى: منهم من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً، ويحيا كافراً ويموت مؤمناً.

ألا إنّ الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ

---

(1) سورة التوبة، آية: 36.

أوداجه، فإن وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرض.

ألا إنّ خير الرجال من كان بطيء الغضب شريع الرضا، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء، وسريع الغضب سريع الفيء، فإنها بها.

ألا إنّ خير التجّار من كان حسن القضاء حسن الطلب، وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب، فإذا كان الرجل حسن القضاء سيء الطلب، أو كان سيء القضاء حسن الطلب فإنها بها.

ألا إنّ لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، وأكبر الغدر غدر أمير عامة.

ألا لا يمنعنّ رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه.

ألا إنّ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

ألا إنّ مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه[1].

(3)

أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا، فيقول هذا من عملكم وهذا أهدى إليّ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فينظر هل يهدى له أم لا. فوالذي نفس محمد بيده لا يغلّ أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيراً جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلّغت[2].

(1) رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري.
(2) رواه الشيخان وأبو داود عن أبي حميد الساعدي.

من خطب أبي بكر رضي الله عنه:

(1)

عن عبد الله بن عكيم أنه قال: خطبنا أبو بكر فقال:

(أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله عز وجل، وأن تُثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف في المسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال:

﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾[1].

ثم أعلموا عباد الله أن الله عز وجل قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم، لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدّقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة فإنما خلقكم للعبادة، ووكّل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون.

ثم اعلموا عباد الله أنكم لتغدون وتروحون في أجل قد غيّب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل لله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم قبل أن تنقضي فتردكم إلى سوء أعمالكم، فإن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنسوا أنفسهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، الوحا الوحا، النجاء النجاء، إن وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريع[2].

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 90.

(2) رواه ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عكيم.

(2)

وخطب رضي الله عنه حين أشير عليه بترك قتال المرتدين ومانعي الزكاة فقال:

(أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت.

أيها الناس:

أَإنْ كَثُرَ أعداؤكم، وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟ والله ليظهرنّ هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، قوله الحق، ووعده الصدق.

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون﴾[1].

﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾[2].

أيها الناس:

والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت بالله إنه خير معين[3].

(3)

عن قيس بن أبي حازم أن أبا بكر رضي الله عنه خطب فقال:

(أيها الناس:

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 18.

(2) سورة البقرة، آية: 249.

(3) الخطابة لأبي زهرة.

إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله :

﴿يـا أيهـا الـذين آمـنوا عليكم أنفسـكم ، لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم﴾[1] .

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إنّ النـاس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه ، يوشك الله أن يعمهم بعقابه) .

وعن أوسط البجلي أنه قال خطب أبو بكر رضي الله عنه فقال :

(قام رسول الله ﷺ عام الأول مقامي هذا ، (ثم بكى ثم قال) :

عليكم بالصدق فإنه مع البر ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور ، وهما في النار ، وسلوا الله المعافاة ، فإنه لم يؤت رجل بعد اليقين شيئاً خيراً من المعـافاة ، (ثم قـال) : لا تقاطعوا ، ولا تـدابروا ، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا[2] .

من خطب عمر رضي الله عنه:

(1)

كانت أول خطبة خطبها أنه حمد الله فيها وأثنى عليه وقال :

(اللهم إني شـديـد فليّنـي ، وإني ضعيف فقـوّني ، وإني بخيل فسخّني ، ثم قال :

أما بعد فقد ابتليت بكم ، وابتليتم بي ، وخُلّفت فيكم بعد صاحبيّ ، فمن كان بحضرتنـا باشرناه بأنفسنا ، ومن غـاب عنا ولّيناه أهل القوّة والأمـانة ، فمن يحسن نزده حسنى ، ومن يُسِئْ نعاقبه ، ويغفر الله لنا ولكم[3]) .

---

(1) سورة المائدة ، آية 105 .

(2) الرياض النضرة للطبري .

(3) الرياض النضرة للطبري .

(2)

ولما دخل الشام خطب فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قال:

(إن رسول الله ﷺ قام فينا خطيباً كقيامي فيكم، فأمر ﷺ بتقوى الله وصلة الرحم، وإصلاح ذات البين، وقال عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساءته سيئته وسرته حسنته فهي أمارة المسلم المؤمن، وأمارة المنافق الذي لا تسوءه، سيئته ولا تسرّه حسنته، إنْ يعمل خيراً لم يرج من الله في ذلك الخير ثواباً، وإن عمل شراً لم يخف من الله في ذلك الشر عقوبة، وأَجْمِلوا في طلب الدنيا، فإن الله قد تكفل بأرزاقكم، وكلٌّ سيتم عمله الذَي كان عاملاً، استعينوا بالله على أعمالكم، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب، صلى الله على نبينا محمد وآله، عليه السلام ورحمة الله، السلام عليكم[1].

(3)

وخطب رضي الله عنه فقال:

(يا أيها الناس:

ألا إنما كنا نعرفكم إذ كان بين ظهرانينا النبي ﷺ وإذ ينزل الوحيَ، وإذ ينبئنا الله من أخباركم، ألا وإنّ النبي ﷺ قد انطلق، وانقطع الوحي، وإنما نعرفكم بما نقول لكم:

من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر لنا

(1) رواها البيهقي في الشعب وابن عساكر، كلاهما عن السائب بن مهجان.

شراً أبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم.

ألا إنّه قد أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن يريد الله وما عنده، فقد خيّل إليّ بآخرة أن رجالاً قد قرؤوه يريدون به ما عند الناس، فأريدوا الله بقراءته، وأريدوه بأعمالكم.

ألا وإني والله ما أرسل عمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفسي بيده إذاً لأقصّنّه منه.

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجمروهم[1] فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم[2].

من خطب عثمان رضي الله عنه:

(1)

لما اجتمعت جيوش كسرى بنهاوند استشار عمر بن الخطاب المسلمين في الخروج إليهم وفي تولي القيادة بنفسه، فخطب عثمان رضي الله عنه، وقال بعد أن حمد الله وتشهد:

(أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام، فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن، فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين البصرة والكوفة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إن سرت بمن معك، ومن عندك تكن في نفسك بالكاثر من عدد القوم، وكنت أعزّ عزّاً وأكثر، إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم باقية،

(1) يقال جمّر الجيش إذا حبسه في أرض العدوّ.

(2) رواه ابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن.

ولا تمنع من الدنيا بعزيز، ولا تكون منهـا في حرز حريز، إن هذا اليوم له ما بعده، فاشهده بنفسك ورأيك وأعوانك، ولا تغب عنه[1]).

(2)

لمّا بايع أهل الشورى عثمان خرج رضي الله عنه وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ﷺ، فحمـد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وقال: إنكم في دار قلعة[2] وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبّحتم أو مسيتم، ألا وإنَّ الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرّنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلـوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبنـاء الدنيـا وأخوانها الذين آثروها وعمروها، ومتّعوا بها طويلاً، ألم تلفظهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبـوا الآخـرة، فكـأنّ الله قـد ضرب لها مثـلاً وللذي هو خير فقال عز وجل:

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والبـاقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾[3].

(3)

عن أبي صالح مـولى عثمان أنه قـال: سمعت عثمان رضي الله عنه يقول على المنبر:

---

(1) تاريخ الطبري.

(2) دار تحوّل وارتحال.

(3) سورة الكهف، آية: 46، والخطبة رواها الطبري في تاريخه.

أيها الناس :

إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسـول الله ﷺ كراهة تفرّقكم عني، ثم بدا لي أن أحدثكموه، ليختار أمرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم في سبيل الله تعالى خير من ألف يوم فيها سواه من المنازل[1].

ومن خطب علي رضي الله عنه:

(1)

خطب رضي الله عنه في الاستسقاء فقال:

(ألا وإنّ الأرض تحملكم، والسماء تظلكم، مطيعتان لربكم، وما أصبحتـا تجودان لكم ببركتها توجّعـا لكم، ولا زلفـة إليكم، ولا لخير ترجوانه منكم، ولكن أمرتا بمنافعكم فأطاعتا، وأقيمتا على حدود مصالحكم فأقامتا.

إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويُقلِع مقلع، ويتذكر، ويزدجر مزدجر، وقد جعل الله الاستغفـار سبباً لدرور الرزق، ورحمة الخلق، فقال:

﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين**﴾[2].

فرحم الله أمرأ استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته.

---

(1) رواها أحمد في المسند.

(2)سورة نوح، آيات: 10 - 11 - 12.

اللهم إنّا خرجنا إليك مـن تحت الأستار والأكنان، وبعد عجيج البهائم والولدان، راغبين في رحمتك، وراجين فضل نعمتك، وخائفين من عذابك ونقمتك.

اللهم فـاسقنـا غيثك، ولا تجعلنـا من القـانطين، لا تهلكنـا بالسنين ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا خرجنا إليك، نشكو إليك ما لا يخفى عليك، حين ألجأتنا المضائق الوعرة، وأجاءتنا المقاحط المجدبة، وأعيتنا المطالب المتعسرة، وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة.

اللهم إنـا نسألك أن لا تـردّنـا خـائبين، ولا تقلبنـا واجمين، ولا تخاطبنا بذنوبنا ولا تقايسنا بأعمالنا.

اللهم انشر علينا غيثك وبركتك، ورزقك ورحمتك، واسقنا سُقْيَى نافعة مروية معشبة، تنبت بها ما قد فات، وتحيي بها ما قد مات، نافعة الحيا، كثيرة المجتنى، تروي بها القيعـان، وتسيل البطنان، وتستورق الأشجار، وترخص الأسعار، إنك على ما تشاء قدير[1].

(2)

وخطب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس:

إنما هلك من كان قبلكم بـركوبهم المعاصي، ولمّا لم ينههم الربـانيون والأحبار، أنزل الله بهم العقوبات، ألا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم الذي نزل بهم، واعلمـوا أن الأمر بالمعروف والنهي عن

(1) نهج البلاغة.

المنكـر لا يقطع رزقاً، ولا يقـرب أجلاً، إن الأمـر ينزل من السماء كقطـر المطر إلى كل نفس بما قدّر الله لها، من زيادة أو نقصان في أهل أو مال أو نفس، فإذا أصاب أحدكم النقصان في أهل أو مال أو نفس ورأى لغيره غيره فلا يكونّن ذلك لـه فتنة. فإن المرء المسلم مـا لم يغش دناءة يظهـر تخشعاً لها إذا ذكرت ويُغْرَى به لئام الناس كالياسر الفالج الذي ينتظر أول فوزة من قداحة توجب له المغنم، وتدفع عنه المغرم، فكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة، إنما ينتظر إحدى الحسنيين، إذا ما دعا الله، فما عند الله خير له، وأما أن يرزقه الله مالاً، فإذا هو ذو أهل ومال، الحرث حرثان: المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام[1].

(3)

وخطب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بـاطّـلاع، وإن المضمار اليوم، وغـداً السبـاق، ألا وإنكم في أيام عمل، من ورائه أجل، فمن قصرّ في أيام عمله قبل حضور أجله فقد خيب أملـه، ألا فاعملـوا لله في الرغبـة كما تعملون لـه في الرهبـة، ألا وَإنيّ لم أرَ كالجنة نائم طالبها، ولم أرَ كـالنار نائم هاربها، ألا وَإنّه من لم ينفعـه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم بـه الهدى جـار به الضـلال، ألا وإنّكم أمرتم بالظعن وَدُلِلْتُم على الزّاد.

ألا أيها الناس إنما الدنيا غرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها مالك قادر، ألا إن الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم.

---

(1) ابن عساكر.

أيها الناس أحسنوا في عمركم، تحفظوا في عقبكم، فإن الله تبارك وتعالى وعد جنته من أطاعه، وأوعد ناره من عصاه، إنها نار لا يهدأ زفيرها، ولا يفك أسيرها، حرها شديد، وقعرها بعيد، وماؤها صديد، وإن أخوف ما أخاف عليكم أتباع الهوى وطول الأمل[1].

خطبة لسليمان بن عبد الملك:

الحمد لله، ألا إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتفقر مثرياً، وتثرى مقتراً، غرّارة، لعّابة بأهلها، عباد الله، فاتخذوا كتاب الله إماماً، وارتضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب بعده، واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفسّ، ظلام الليل إذا عسعس[2].

خطبة لعمر بن عبد العزيز:

وخطب فقال:

(أما بعد: أيها الناس، فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدنّ عنكم يوم القيامة، فإن من زافت به منيّته، فقد قامت قيامته، لا يستعتب من سيء، ولا يزيد في حسن، أَلا لا سلامة لامرىء في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه

(1) ابن عساكر.

(2) العقد الفريد 2: 143.

إلا الله، قـد فنى عليه الكبير، وكبر عليـه الصغير، وفصح عليـه الأعجميّ، وهاجر عليه الأعرابيّ، حتى حسبوه ديناً، لا يرون الحقّ غيره). ثم قال: (إنه لحبيب إليّ أن أوفرّ أموالكم وأعراضكم إلا بحقّها، ولا قوة إلا بالله)[1].

خطبة أخرى له:

وخطب فقال:

(إن لكل سفـر زاداً لا محالـة، فتـزودوا لسفـــركم من الـدنيـا إلى الآخرة، وكـونوا كمن عاين ما أعـد الله له من ثـوابه وعقابه، فـرغبوا ورهبوا، ولا يطولنّ عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنـه والله مـا بسط أمل من لا يـدري لعلـه لا يصبح بعـد إمسـائه، ولا يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيراً، وإنما تقرّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يبرأ من كلم إلا أصابه جارحٌ من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟ أعوذ بالله أنْ آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي، وتظهر عورتي، وتبدو مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقير، والموازين منصوبة والجوارح ناطقة، فلقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولوعنيت به الجبال لذابت، أو الأرض لانفطرت، أمـا تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وإنكم صائرون إلى أحدهما؟)[2].

خطبة أخرى له:

(من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص 40، ولابن الجوزي ص 204.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص 196.

أحسن صلته، وأدى واجب حقه، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب، فالزموها، الرزق مقسوم فلن يعدو المؤمن ما قسم له، فَأَجْمِلُوا في الطلب، فإن في القنوع سعة وبلغة، وكفافاً، وإن أجل الدنيا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن، وكلّ أَمْرٍ آتٍ عن قريب، وقد رأيت حالات الميت وهو يسوق، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله، وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، وَوَجْهُهُ مفقود، وذكره منسيّ، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الديار، فاتقوا هول يوم لا يحقر فيه مثقال ذرة في الموازين)[1].

آخر خطبة له:

وخطب بخناصر خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

(أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتى تردّوا إلى خير الوارثين، ثم أنتم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيّبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسّد ولا ممهد قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، مرتهناً بعمله، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدّم وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة،

(1) تاريخ الطبري 8: 140.

أحسن صلته، وأدى واجب حقه، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب، فالزموها، الرزق مقسوم فلن يعدو المؤمن ما قسم له، فَأَجْمِلُوا في الطلب، فإن في القنوع سعة وبلغة، وكفافاً، وإن أجل الدنيا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن، وكلّ أَمْرٍ آتٍ عن قريب، وقد رأيت حالات الميت وهو يسوق، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله، وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، وَوَجْهُهُ مفقود، وذكره منسيّ، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الديار، فاتقوا هول يوم لا يحقر فيه مثقال ذرة في الموازين)[1].

آخر خطبة له:

وخطب بخناصر خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

(أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتى تردّوا إلى خير الوارثين، ثم أنتم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيّبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسّد ولا ممهد قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، مرتهناً بعمله، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدّم وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة،

(1) تاريخ الطبري 8: 140.

نـوائبهـا غُماً، ولم يمس امرؤ منهـا في جنـاح أمن، إلاّ أصبح منهـا في قوادم خـوف، غرارة غـرور ما فيها، فـانية فـان من عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقل منها، استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثـر مما يوبقه، كم واثـق بها قد فجعته وذي طمأنينة إليهـا قد صرعتـه، وكم من مختـال بها قد خـدعتـه، وكم ذي أُبَّهَةٍ قد صيرتـه حقيراً، وذي نخوة قد ردتـه ذليلاً، وذي تاج قد كبتـه لليدين والفم، سلطانها دول، وعيشتها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها مرّ، وغذاؤها سمام وأسبابها زحام، وقطافها سلع حيّها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وضعيفها وسليمها منكوب، وجامعها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وزفراته، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل:

﴿لِيَجـزيَ الذيـن أسـاؤا بمـا عملـوا ويَجْـزِيَ الذيـن أحسنـوا بالحسنى﴾[1].

ألستم في مساكن من كـان قبلكم أطول منكم أعماراً، وأوضح منكم آثاراً، وأعد عديداً، وأكنف جنوداً، وأعتد عتاداً، وأطول عماداً، تعبدوا أيّ تعبد، وآثروها أي إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار. فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساًبفدية، وأغنت عنهم مما قد أملتهم به، بل أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعفـرتهم بالمناخر، وأعانت عليهم ريب المنون، وقد رأيتم تنكرها إن دان لها وآثرها وأخلد إليها، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبدِ، إلى آخـر الأمد، هل زودتهم إلا الشقاء، وأحلتهم إلا الضنك. أو نورت لهم إلا الظلمة، وَأعقَبَتْهُمْ إلا الندامة، أفهذه تؤثرون، أو على هذه تحرصون، أو إليها تطمئنون، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿من كان يريد الحياة وزينتها، نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا

(1) سورة النجم، آية: 31.

يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون﴾[1].

فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها. فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوهَا لا بد، فإنها هي كما نعت الله عز وجل لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، فاتعظوا فيها بالذين يبنون بكل ريع آية، وبالذين قالوا من أشد مناقوه، واتعظوا بمن رأيتم من إخوانكم، كيف حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا، فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الضريح أكنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، يزارون ولا يستزارون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دمعهم، وهم كمن لم يكن، قال الله تعالى:

﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين﴾[2].

واستبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالآل غربة، وبالنور ظلمة، فَجَاءُوهَا حفاة عراة فرادى، وظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة إلى خلود الأبد، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾[3].

فاحذروا ما حذركم الله وانتفعوا بمواعظه، واعتَصموا بحبله عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه[4].

---

(1) سورة هود، آيتا 15 و 16.

(2) سورة القصص، آية: 58.

(3) سورة الأنبياء، آية: 104.

(4) جمهرة خطب العرب ج 2.

خطبة للحسن البصري:

أيها الناس، إن لله عباداً قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل، لما رجوه في الدهور الأطاول. أما الليل فقائمون على أقدامهم، يتضرعون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، تجيء من الخشيـة دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم وأما النهار فحلماء أتقياء أخفياء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تخالُـهُمْ من الخشية مرضى، وما بهم من مرض، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها لَـهُمْ ـ والله ـ كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم، وكانوا أبصربقلوبهم لدينهم، منكم لدنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا لحسناتهم أن تردَّ عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم:

﴿أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾[1].

خطبة محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس:

الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له، وأشهـد أن محمداً عبـده ورسولـه، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين ولو كره المشركون، من يطع الله ورسوله، فقد اعتصم بـالعروة الوثقى، وسعـد في الأولى والآخرة، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيـداً، وخسر خسراناً مبينا، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبّع رضوانه، ويتجنب سخطه، فإنما نحن له وبه، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأرضى لكم ما عند الله، فإن تقوى الله أفضل ما تحاثّ الناس عليه، وتداعوا إليه، وتواصلوا

(1) سورة المجادلة، آية: 22 وخطبة من جمهرة خطب العرب ج 2.

به، فاتقوا الله ما استطعتم، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون[1].

خطبة للمهدي:

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، ورضي به من خلقه، أحمده على آلائه وأمجّده لبلائه، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه توكّل راض بقضائه، وصابر لبلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيّه المجتبى ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم، واقتراب من الساعة، إلى أمة جاهلية، مختلفة أميّة، أهل عداوة وتضاغن، وفرقة وتباين، قد استهوتهم شياطينهم، وغلب عليهم قُرناؤُهم فاستشعروا الرّدى، وسلكوا العمى، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها.

﴿لِيَهْلِكَ من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾[2].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة، وأحثّكم على إجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرّب رحمته، وينجي من سخطه، وينال به ما لديه، من كريم الثواب، وجزيل المآب، فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب، يوم توقفون بين يدي الجبّار، وتعرضون فيه على النار،

﴿يوم لا تكلّم نفس إلا بإذْنِه فمنهم شقيّ وسعيد﴾[3] **﴿يوم يفرّ المرء**

---

(1) البيان والتبيين ج 2 ص 65.

(2) سورة الأنفال، آية: 42.

(3) سورة هود، آية: 105.

من أخيـه وأمـه وأبيـه وصـاحبتـه وبنيـه، لكلّ امـرىء منهم يـومئـذ شأن يغنيه﴾[1].

﴿يـوم لا تجـزي نفس عن نفـس شيئـاً، ولا يقبـل منهـا عـدل، ولا تنفعهـا شفاعة ولا هم ينصرون﴾[2].

﴿يوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، إنّ وعد الله حق، فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا، ولا يغرّنّكم بالله الغرور﴾[3].

فإن الدنيا دار غرور، وشرور، واضمحلال وزوال وتقلّب وانتقال، قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم، من ركن إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أملها كذبته، ومن رجاها خذلته، عزّها ذل، وغناها فقر، والسعيد من تركها، والشقي فيها من آثرها، والمغبون فيها مَنْ بَاعَ حظّه من دار آخرته بها، فالله الله عباد الله، والتوبة مقبولة، والرحمة مبسوطة، وبادروا بالأعمال الزكية، في هذه الأيام الخالية، قبل أن يؤخذ بالكظم، وتندموا فلا تنالون الندم، في يوم حسرة وتأسف، وكآبة وتلهّف، يوم ليس كالأيام، وموقف ضنك المقام، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلّكم ترحمون﴾[4].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾،

ـ إلى آخـر السورة ـ أوصيكم عباد الله بما أوصـاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم عنه، وأرضى لكم طاعة الله، وأستغفر الله لي ولكم[5].

---

(1) سورة عبس، آية 24 وما بعدها.

(2) سورة البقرة، آية: 123.

(3) سورة لقمان، آية: 23 و 24.

(4) سورة الأعراف، آية: 204.

(5) العقد الفريد 2: 14٤.

خطبة لهرون الرشيد:

(الحمد لله نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقاً، ونتوكل عليه، مفوّضين إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه على فترة من الرسل، ودروس من العلم، وإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، بشيراً بالنعيم المقيم ونذيراً بين يدي عذاب أليم، فبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله، فأدّى عن الله وعده ووعيده، حتى أتاه اليقين، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزاً بالجنة، ونجاة من النار، وأحذّركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتعلن فيه الأسرار، يوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التّلاق، ويوم التّناد، يوم لا يستعتب من سيئة، ولا يزداد من حسنة؛

﴿يوم الآزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصّدور﴾[1].

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثمّ توفّى كلّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[2].

عباد الله: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، حصّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: (**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له**). إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى

(1) سورة غافر، آيتا: 18و19.
(2) سورة البقرة، آية: 281.

بالأمانة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين، قال الله عز وجل وقوله الحق:

﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء، فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزكاة﴾[1]،

وقال:

﴿وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى﴾[2].

وإياكم والأمانّي، فقد غرّت وأردت، وأوبقت كثيراً، حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال فَرَغَّبَ بالوعد، وقدم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأحبة والعشائر، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم، ولا تحُولُونَ دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب،

﴿ليَجْزيَ الّذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى﴾[3]،

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله عز وجل:

﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون﴾

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم،

---

(1) سورة الأعراف، آية: 156.

(2) سورة طه. آية: 82.

(3) سورة النجم، آية: 31.

﴿قل هو الله أحـد* الله الصمد* لم يلد* ولم يولد* ولم يكـن له كفواً أحد﴾.

آمركم بما أمركم الله بـه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، واستغفر الله لي ولكـم[1].

خطبة للمأمون بن الرشيد:

ولما أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال:

(أيها الناس: إني جعلت لله على نفسي، إن استرعـاني أموركـم أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دمـاً عمداً لا تحلّه حدود، وتَسفكـه فرائضه، ولا آخـذ لأحـد مـالاً، ولا أثـاثـاً، ولا نخلـة تحرم عليّ، ولا أحكم بهواي، في غضبي ولا رضـاي، إلا ما كـان في الله وله، جعلت كلّـه لله عهداً مؤكدّاً، وميثاقاً مشدّداً، إني لفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه، فإن غيرّت أو بدلت كنت للغير مستأهلاً، وللنكّال معرّضاً، وأعوذ بالله من سخطه، وأرغب إليه في المعونة على طاعته، وأن يحول بيني وبين معصيته).

خطبة له في يوم الجمعة:

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه، أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتـوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولـه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على

---

(1) العقد الفريد ج 2 ص ١٤٦

الدّين كلّه ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده والتنجّز لوعده، والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم، وترحلّوا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة الواحدة، لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجديدان: الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحلّ بالفوز أو بالشّقوة لمستحق لأفضل العدّة، فاتّقى عبد ربّه، ونصح نفسه، وقدّم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له والشيطان موكّل به، يزين له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتى تهجم عليه منية أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسرة على ذي غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه أيامه إلى شقوة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصرّ به عن طاعته غفلة، ولا تحلّ به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء، وبيده الخير، وإنه فعّال لما يريد)[1].

خطبته يوم الأضحى:

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظّم حرمته، ووفّق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله، وفدى فيه من الذّبح نبيه، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومتقدّم الأيام المعدودات من النّفر، يوم حرام، من أيام عظام، في

(1) عيون الأخبار 2: ص 253، والعقد الفريد 2: 148.

شهر حرام، يـوم الحج الأكبر، يوم دعا الله إلى مشهده، ونـزل القرآن بتعظيمه، قال الله جل وعز:

﴿وأذّن في النّاس بـالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضـامر يأتين من كلّ فجّ عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم منْ بهيمة الأنعام، فكلوا منها، وأطعموا البائس الفقير، ثمّ ليقضوا تفثهم، وَليوفوا نذورهم، وليطوّفوا بالبيت العتيق، ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربّـه، وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبـوا الرّجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور﴾[1].

فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظّموا شعائر الله، واجعلوها من طيّب أموالكم، وبصحّة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التّقوى منكم[2] ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية بالتقوى، ثم بعد ذكر الجنة والنار، عظم قدر الدارين، وارتفع جزاء العملين، وطالت مدة الفريقين، الله الله، فـوالله إنـه الجدّ لا اللّعب، وإنـه الحقّ لا الكذب، ومـا هـو إلا الموت والبعث، والميزان والحساب والقصاص والصراط، ثم العقاب والثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كلّه في الجنـة، والـشر كله في النار»[3].

خطبته يوم الفطر:

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم عيد وسنّة وابتهال ورغبة، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حجّ بيته الحرام،

---

(1) سورة الحج، آيات: 27، 28، 29، 30.

(2) سورة الحج، آية: 37.

(3) عيون الأخبار م 2: ص 254 والعقد الفريد 2: 148.

خاتمة الشهر، وأوّل أيام شهور الحج، وجعله مُعَقّباً لمفروض صومكم، ومتنفّل قيامكم، أحلّ فيه الطعام لكم، وحرّم فيه الصيام عليكم، فاطلبوا إلى الله حَوَائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال: «لا كبير مع استغفار، ولا صغير مع إصرار»، ثم التكبير والتحميد، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام، والوصية بالتقوى، ثم قال: فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحتضر الشكّ فيه أحداً منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تستقال بعده إلا فوقه، ولا يعين على جزعه وعلزه وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته، وضيقه ووحشته، وهول مطلعه ومسألة ملائكته، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به، فمن زلّت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته، ودعا من الرّجعة إلى ما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه، فالله الله عباد الله، وكونوا قوماً سألوا الرّجعة فأعطوها وإذ منعها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذّركم الله، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبدٌ ما يضع في ميزانه مما يثقل به، وما يملّ في صحيفته الحافظة لما عليه وله، فقد حكى الله لكم ما قال المفرّطون عندها، إذ طال أعراضهم عنها، قال:

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه ويقولون يا ويلتنا، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحدا﴾[1]، وقال:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[2].

(1) سورة الكهف، آية: 49.

(2) سورة الأنبياء، آية: 47.

ولست أنهاكم عن الـــدنيـا بأعظم ممـــا نهتكم الـدنيـــا عن نفسهـا، فإنّ كل ما بها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها، ونهي الله عنها، فإنه يقول:

﴿فلا تغرّنكم الحياة الدّنيا، ولا يغرنّكم بالله الغرور﴾[1]، وقال:

﴿إنّما الحيـاة الـدّنيـا لعب ولهو. . .﴾ الآية[2]، فـانتفعوا بمعـرفتكم بها، وبأخبار الله عنها، واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها»[3].

خطبة لسان الدين بن الخطيب في الحضّ على الجهاد:

(أيها الناس ـ رحمكم الله تعالى ـ :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قـد دهم العدّو ـ قصمه الله تعالى ـ ساحتهم ورام الكفر ـ خذله الله تعالى ـ استباحتهم، وزحفت أحزاب الطّواغيت إليهم، ومدّ الصّليب ذراعيه عليهم، وأيديكم ـ بعزّة الله تعالى ـ أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الـرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد فقد تعينّ، الجار الجار فقد قررّ الشرّع حقّه وبينّ، الله الله في الاسلام، الله الله في أُمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في الوطن، الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكّد عهـد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينـوا إخوانكم بما أمكن من

(1) سورة فاطر، آية: 5.

(2) سورة الحديد، آية: 20.

(3) عيون الأخبار ج 2: ص 255، والعقد الفريد ج 2 ص 148.

الإعانة، أعانكم الله تعالى عنـد الشدائد، جدّدوا عوائد الخير، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، وألسنةَ الآيات تناديكم، وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾(1)

ومما صحّ عنه قوله: «من أغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار»، «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخـان جهنم»، «من جهّز غـازياً في سبيل الله فقـد غـزا»، أدركـوا رمق الـدين قبل أن يفـوت، بـادروا عليل الاسلام قبل أن يمـوت، احفظوا وجوهكم مع الله تعـالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

مـاذا يـكـون جوابـكـم لنبيـكـم
وطريـق هـذا الـعذر غيـر ممهّـد

إن قـال: لِمْ فرطتمـوا فـي أمّتـي
وتركتمـوهـم للعـدّو المعـتـدي؟

تـالله لـو أن العقوبـة لـم تخـف
لكفـى الحيـا مـن وجـه ذاك السيّـد

اللهم أعطف علينا قلوب العباد، اللهم بثّ لنا الحميّة في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد. اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبائك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً(2).

---

(1) سورة الصف، آية: 10.

(2) نفح الطيب ج 4 ص 3.

خطبة للإمام المراغي بالجامع الأزهر الشريف:

في يوم 11 شوال سنة 1355 ـ موضوعها: استخلاف الإنْسان في الأرض، وشروط الاستخلاف:

أحمدك اللهم حمد من أخلص النيّة لوجهك الكريم، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك، وابتغاء رضوانك العميم، وأشهد أن لا إله إلا الله، تفردّ بالعزة والسلطان، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، بعثه الله رحمة للانسان صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الاطهار، وصحبه الطيبين الأخيار.

قال الله تعالى:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1].

هذا وعد الله الصادق، ولن يخلف الله وعده.

أمور ثلاثة أيها المؤمنون هي أسمى ما يتصوره الانسان، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الايمان:

1 ـ استخلاف العاملين في الأرض.

2 ـ وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم.

3 ـ وتبديلهم بعد الخوف أمناً وطمأنينة.

والاستخلاف في الأرض خلافة عن الله في عمارة الكون ـ وتوزيع العدل والاحسان بين عباده ـ وهو يعتمد على القوّة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة ـ وهو مطلب تتفانى الأمم في سبيله، وتضّحي بأبنائها وأموالها ابتغاء

---

(1) سورة النور، آية: 55.

الوصـول إليه ـ وما استقـامت عقيدة ولا استقرّ سلطـان، ولا وجد مجد سؤدد، ولا شعرت أمّة بالعزّة إلا إذا حمتها القوّة وبسطت عليها أجنحتها، وهذه المثل قائمة، وشواهد الماضي حاضرة في الذهن ماثلة.

وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة، ومقصد رفيع، يتبعه استقرار النفوس وراحة الضمائر، والشعور بالعزّة والكرامة، ليس أشهى إلى النفس، ولا أمتع للقلب، ولا أهنأ للـروح، . من أن يـرى الانسـان أنّ عقيدتـه صاحبة السلطان والنفوذ في نفوس النّاس أجمعين. والأمن من بعد الخوف أعزّ مطلب للفرد والجماعة، وللخوف آثار تفسد العقل، وتذهب بالتفكير، وتجعل العيش مريراً، والحياة مضطربة، وما أحلى الأمن يستقرّ بعد الفرق، وما أعذبـه يتدفّق بعد القلق، عندئذٍ يندفع الانسـان نحو العمل صافي القلب متجهاً إلى الله ملتمساً الخير والنفع للعباد.

وليس الايمان أيها المؤمنون تصوّرات تتخيّلها العقول وتجري عباراتها على اللسان، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها.

﴿إنما المؤمنـون الذين آمنـوا بـالله ورسولـه ثم لم يرتـابـوا وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾.

ومن آثار العقيدة الدّفاع عنها بالنفس والاستهانة في سبيل نشرها بالمال، ومن آثارها العمل الصالح.

وليس العمل الصالح مجرّد صلاة تؤدى بالحركات، أو صيام فيؤدى بالحرمان من اللّذات، أو ذكر يجري على اللسان ألفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة.

إنما العمل الصالح ما اشتمـل على روح الإسعاد: من إخلاص، ومحبة لخير الفرد والجماعة، وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله،

﴿وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين حنفـاء ويقيموا الصّلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة﴾[1] .

إنّ أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهد ، والصّدق في القول ، والشجاعة في الحقّ ، والصبر على احتمال المكاره ، والعدل مع الأفراد ، بأداء حقوقهم ، وحبّ السعادة لهم ، وإرشادهم إلى الخير ومعاونتهم فيه .

ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة ، وما يفرضه الحاكم ، ممّا ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعيّة ، والـدأب والسهر على مصالحها وحيـاطتها من الانزلاق في الشرّور والتهاون في الدين وإنّ قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب من الحكام ، ومطلوب من الرعية ، والعدل هو اتباع السنن الإلهية ، والأوامـر الدينية ، والنّواميس الوضعيـة التي لا تتنافى والدّين .

إن الأمة الصـالحة التي تستحق الخلافـة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العـدل يجب أيضاً أن تؤدي للأرض حقّهـا من عمران ، وأن تستخـرج ما فيهـا ومـا حـولها من قوى ومنـافع لتحققّ الإرادة الإلهيـة من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان ؛

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل مـن السماء ماء فأخرج به من التّمرات رزقاً لكم ، وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخّر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2] .

عباد الله : لا تسعد أمة تتفرّق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزاباً ، رائدها

---

(1) سورة البينة ، آية : 5 .

(2) سورة ابراهيم ، آيات : 32 و 33 و 34 .

الهوى وقائدها المصالح الخاصّة، لا تسعد أمّة لا تعتصم بحبل الله المتين، ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين، لا تسعد أمة تحتكم إلى الشهوات، وتتعامى عن الآيات، وتدع النّذر، وتعمى عن العبر، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهرياً، وتزدري بالأخلاق الفاضلة حبّاً في الاستمتاع بالشّهوات، وما في الحياة من لذّات، لا تسعد أمّة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها في الترّف، ويستعذبون الرّاحة، ويأنفون العمل، **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا﴾**[1].

أيها المؤمنون، نحن البشر بني الانسان بين أمرين...

إما أن نستضيء بنور العقل ونهتدي بهدى الشرع فنصير في الدنيا إلى عزة نعلو بها في أجواز الفضاء، ونخترق بها أطباق الأرض، ثمّ في الآخرة إلى جنّة عرضها السموات والأرض، إلى مغفرة الله ورضوانه.

وإما أن نعمي عن هدى الله، ونغمض عمّا حلّ بالأمم السّابقة أعيننا، ونغلي مراجل الشّهوات فيما بيننا، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا، فنصير في الدنيا إلى ذلة وضعة، ثم في الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة، إلى خزي من الله وخذلان:

﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾[2].

وقانا الله عذاب النار وسوء المصير: وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة، وهدانا إلى ما يرضيه ويقرّبنا من عفوه ورحمته. روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان: أن**

---

(1) سورة الإسراء، آية: 16.

(2) سورة الإسراء، آيتا: 18 و 19.

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النّار»[1].

خطبة أخرى للامام المراغي: يوم 12 ذي القعدة 1356:

الحمد لله العليّ القادر، العزيز القاهر، الحكيم الذى لا يضلّ، الخبير الذى لا ينسى، سبحانه هو الكبير المتعال.

نحمده حمداً به نستأهل غفرانه، ونستمنح عطفه ورضوانه، ونشهد أن لا إله إلاّ الله توحّد بالرّبوبية المطلقة، وتفرّد بالجلال والعزّة، وبرأ الخلق بقدرته، وأملّهم باحسانه ورعايته، ونصليّ أفضل الصّلوات وأتمّها على أفضل الخلق وأكملهم، من ختم الرسالة وأدّى الأمانة، وجاهد فى الله حقّ جهاده، وكان أفضل قدوة لعباده سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، الذين حملوا من بعده علم الهداية، فدانت لهم الأمم، وخضعت لسلطانهم الرّقاب، وكان فضل الله عليهم عظيماً.

أمّا بعد فيقول الله تعالى:

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام ويخرجُهُم من الظّلمات إلى النّور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[2].

ويقول الله تعالى:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[3].

---

(1) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص 297.

(2) سورة المائدة، آيتا: 15 و 16.

(3) سورة النحل، آية: 97.

على هذا الأساس شبّ الاسلام عزيزاً لا يعرف الذّلّ، كريماً لا يقبل الضّيم، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزّه وشيدوا صروح مجده، وطوّفوا به فى الآفاق نافذ السّلطان، رفيع المكان.

ثمّ خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى واتّبعوا الشّهوات وضلّوا السّبيل حسبوا الأمر مغانم تقسم، واسلابا توزّع، ودنيا مملوءة باللّذات فيها دعة وسكون، وترف ومجون وطال عليهم الأمد فى ذلك فقست قلوبهم، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الالهى، فساءت حالهم، وصبروا على الذّلّ واطمأنّوا إليه. تحلّلوا من أصول الاسلام وفضائله، وسوّل لهم الشيطان أن الصّلاة والصّوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النّفوس وقوانين تنظّم الحياة وتسعدها، ليست إلاّ بقية من قرون خلت، لا يليق أن يتمسك بها الرّجل المتدين الذى عرف معنى الحياة وما فيها من لذّة ومتعة.

سوّل لهم الشيطان أن التّديّن عَارٌ، وأنّ الخمر والميسر والاسترسال فى الشّهوات والانغماس فى الاباحيّة نوع من الحريّة، وخاصّة من خواصّ المدنيّة.

سوّل لهم أنّ التديّن عار فتركوا دينهم، ونبذوا كتابهم وانصرفوا عن العمل الصالح والخلق الفاضل فصاروا نهباً للأمم ومثلاً للذّلّة، وتوالت عليهم النّذر فلم يتدبّروا، وتتابعت أمامهم العبر فلم يعتبروا فحقّت عليهم الكلمة، وأُذيقُوا لباس الجوع والخوف، وسلّط عليهم من لا يخاف الله فيهم:

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[1].

(1) سورة النحل، آية: 112.

بهذا أصبح الاسلام فى ناحية والمسلمون فى ناحية، وبينهما فجوة بعيدة الأطراف.

تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ومهّدوا لمن لا يعرفون الأديان إلاّ من حالة أهلها أن يقولوا: «إنّ الاسلام دين لا يعرف العزّة والكرامة، ولا يميّز الفضيلة والرّذيلة، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر، ولأهله فى ذلك قوانين تنظمها، وجرائد ومجلات تعلن عنها. دين يبيح الكذب والزّور والرّشوة والفجور، والفوضى في النّظام، والجور فى الأحكام، دين فى الكيد والنفاق، وأساليب التّفريق والشّقاق، والغى والعناد، والاثم والالحاد».

بهذا ونحوه من الآثام والرّذائل التى صارت بين المسلمين معروفة مألوفة - وهى عند العقلاء وفى دين الاسلام منكرة ممقوتة ــ يُصَوَّرُ الاسلام أخذاً من حالة جمهور يدين بالاسلام، وحكومة دينها بنص دستورها الاسلام، أليس هذا أيها المسلمون جناية من المسلمين على الاسلام؟ أليس هذا تناقضاً لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه؟ ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه؟

﴿إن هى إلاّ فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾[1].

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾[2].

أيها المسلمون، اسمعوا فى دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم. يقول الله تعالى:

﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا

---

(1) سورة الأعراف، آية: 185.

(2) سورة الحديد، آية: 16.

فى أنفسهم حرجاً مّما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[1] .

ويقول :

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً﴾[2] .

يقرّر القرآن نفى الايمان عمّن لم يرض بأحكام الله، رضا يزيل الحرج عن صدره، ويملأ قلبه استسلاماً وطمأنينة، ويصف بالنفاق من يصدّ الدّاعى إلى الله ورسول الله . ويقول فى آية أخرى :

﴿قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطّيبات من الرّزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدّنيا خالصة يوم القيامة * كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون * قل إنّما حرّم ربيّ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[3] .

إنّ الدين أيها المسلمون مهما امتدّت آفاقه، وتأوّل فيه المتأوّلون، فهو لا يحتمل هذه البوائق، ولا هذا الالحاد، ولا هذه الاباحية الجامحة، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حدّ .

وإنما يحتمل مدنيّة فاضلة تقوم على علم كامل، وعمل صالح، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتّع بزينة الله وما هيّأ لعباده من طيبات :

﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾[4] .

هذا هو الاسلام أيهّا المؤمنون، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وأنقذوا

(1) سورة النساء، آية : 65 .
(2) سورة النساء، آية : 61 .
(3) سورة الأعراف، آيتا : 32 و 33 .
(4) سورة الأعراف، آية : 157 .

النّاس من أسباب الدّمار والتهلكة. واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرّور والآثام.

خُطّوا للفضيلة طريقاً واضحاً، وضعوا لها نهجاً مستقيماً، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوّة السّلطان.

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1] **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾**[2].

أيها المسلمون إن الله وضع قواعد الحكم الصّالح فى هذه الآيات البيّنة الواضحة:

﴿إن الله يأمركم أن تودّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[3].

والأمانة كل ما تجب المحافظة عليه، فالسرّ أمانة، والتكاليف الشرّعيّة أمانة، وعلم العالم أمانة، وقول الحقّ في الشّهادة وغيرها أمانة، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أمانة. والعدل فى الأحكام والأفعال والأقوال أمانة.

كتاب الله قانون، وسنّة رسوله قانون، وما اتفق عليه أهل الحّل والعقد من المسلمين ممّا لا يخالف نصّا فى الكتاب ولا فى السنّة قانون، والرّد عند التّنازع إلى قواعد الدّين العامّة وأحكامه الكلّية قانون، وكل

(1) سورة محمد ﷺ، آية: 7.

(2) سورة الروم، آية: 47.

(3) سورة النساء، آية: 59.

هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها، واستحفظكم عليها، وأنزل عليكم فى محكم كتابه:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرّسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[1].

أيها المسلمون، اسمعوا أدب نبيّكم الكريم لأصحابه وأمّته «شرّ ما في الرّجل شحّ هالع وجبن خالع»، ـ الهالع : المحزن، والخالع الذى يخلع القلب من الخوف.

ويقول ﷺ: **(لن تزول قدم شاهد الزّور حتّى يوجب الله له النار ومن كتم شهادة دُعيَ إليها كان كمن شهد الزّور، الدّين النّصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا « ـ يشير إلى صدره ـ » كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه).**

من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحداً بمحاباة فعلية لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتّى يدخله النار.

اتقوا الظلم فإنّهُ ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشّح فإنّهُ أهلك من قبلكم: حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلّوا محارمهم. وإيّاكم والخيانة فانها بئست البطانة.

من التمس رضا الله بسخط النّاس كفاه الله مؤونة النّاس. ومن التمس رضا النّاس بسخط الله وكله الله إلى النّاس.

اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب. وفقنى الله واياكم إلى التّمسّك بدينه والعمل على مرضاته والتخلّق بأخلاق نبيه الكريم[2].

---

(1) سورة الأنفال، آية: 27.

(2) من هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص 400 وما بعدها.

خطبة للشيخ على محفوظ الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر أهملنا ديننا فساءت حالنا:

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن أطاعه، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه وهو العزيز الحكيم، وأشهد أن لا إله إلاّ الله أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين. . ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾[1] فهذب بالكتاب أخلاقنا، وأصلح به أعمالنا، وهدانا إلى وسائل الرقي والسعادة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، والداعى إلى الصراط المستقيم، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين، ووقفوا عند حدوده فخضعت لهم رقاب الجبابرة، وأسقطوا عروض الأكاسرة، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين. أما بعد: فقد قال الله تعالى:

﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[2].

أيها الناس: لقد كانت الأمة الاسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله، عاملة بسنة نبيها، صحيحة فى عقائدها، صالحة فى أعمالها، حسنة فى معاملاتها وعاداتها، كريمة فى أخلاقها، بصيرة فى دينها، راقية فى آدابها وعلومها، فكانت عزيزة الجانب قوية الشوكة، جليلة عظيمة مهيبة، صاحبة السلطان والصولة على من عداها، واليوم تغير أمرها، وتبدل حالها، اختلت عقائدها، فسدت أعمالها، ساءت معاملاتها وعاداتها، تدهورت أخلاقها، جهلت أمر دينها ودنياها، تأخرت فى علومها وصنائعها،

(1) سورة آل عمران، آية: 164.

(2) سورة الرعد، آية: 11.

فصارت ذليلة الجانب، ضعيفة الشوكة، ساقطة الكرامة فاقدة الهيبة مغلوبة على أمرها، متأخرة فى مرافق حياتها، تتخبط فى ظلمات الجهل، وتنقاد للخرافات والأوهام،

﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[1] .

وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها، وانحرفت عن طريق الهادى نبيها، وسارت وراء هواها، وفتنت بزخارف الحضارة المزيفة، والمدنية الكاذبة، وظنت الاباحية حرية، والخلاعة رقياً، فتعدّت حدود العقل والدين، وأغضبت خالق الأرض والسماء، فساءت حالها وسلط عليها عدوها،

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[2] .

أيها الناس: لقد ذاقت الأمة وبال أمرها، وعوقبت بشر أعمالها، وتجرعت مرارة الذلة والهوان، والتفرق والانحلال، كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم

﴿صراط الله الذى له ما في السموات وما فى الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور﴾[3] .

كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نفيق من سكرتنا، ولا ننتبه من غفلتنا، ولا ننزجر بالمحن والبلايا، ولا نعتبر بحوادث الأيام، لو كان لنا نفوس حيّة وقلوب يقظة، لو كان لنا شعور حي واحساس قوي، لنبهتنا البلايا، وأيقظتنا المؤلمات، أيها المسلم: الدين عقيدة صحيحة، وعبادات قويمة، ومعاملات حسنة عادلة، وأخلاق كريمة. فهل أنت صحيح العقيدة، قويم العبادة، حسن المعاملة، كريم الأخلاق؟ هل

---

(1) سورة الروم، آية: 9.

(2) سورة النور، آية: 63.

(3) سورة الشورى، آية: 53.

أنت سائر في كل أعمالك وأحوالك في طريق الدين؟ أم أنت تسير منحرفاً عن الطريق القويم؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتّك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالاً. أو مُرَائياً مختالاً، أو مداهنا منافقاً؟ هل من الدين أن يكون المرء نماماً أومغتاباً؟ أو لعّاناً أو سبابا، أو غاشا أو خائناً؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد، مخلفاً للوعد، متكبراً جباراً عنيداً، مماطلاً في حقوق الناس؟ هل من الدين أن يكون مهملاً لأولاده، عاقاً لوالديه، قاطعاً للرحم، مسيئاً لزوجه مؤذياً لجيرانه؟ هل من الدين أن يكون قاسي القلب: لا يرحم مسكيناً، ولا يكرم يتيماً، ولا يعطف على ذي عاهة أو أرملة؟ كلا! أين هذا من قوله تعالى:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً﴾[1].

الآية.

كلا، أين هذا من قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أيها الناس: ما هذا الفساد في أمة شعارها الاسلام، وأساس دينها القرآن؟ ما هذا التدهور الخلقي في أمة رسولها سيد ولد عدنان؟ أتحكمت الشهوات في النفوس فأفسدتها؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة؟

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2].

أرأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقي والسعادة. فاتبعتم ديناً غيره ينهض بكم ويسعدكم؟ كلا والله، لا رقي إلا به، ولا سعادة إلا به، ولا فلاح الا به، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء في الدنيا والآخرة إلاّ بِهِ:

---

(1) سورة النساء، آية: 36.

(2) سورة محمد ﷺ، آية: 24.

﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾[1].

قال صلوات الله وسلامه عليه : **(اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واحسن إلى جارك تكن مؤمناً. وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً)** رواه أبو داود ـ وشرح فى الخطبة الثانية قوله صلوات الله وسلامه عليه : (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه ثم ختمها بقوله : أيها الناس لا خلاص للأمة من هذا الشقاء، ولا نجاة لها من هذه البلايا الا باصلاح القلوب واستقامة الأعمال، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين واحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين، قال صلوات الله وسلامه عليه : **(لقد تركت فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا من بعدي، كتاب الله وسنة رسوله)**[2].

خطبة للشيخ علي محفوظ

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها :

الحمد لله الذى أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة، وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين، والشكر له تعالى هدانا للاسلام وفضلنا على جميع الأمم. وأشهد أن لا إله إلاّ الله أعزّ الطائعين، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين، وإمام الخاشعين، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله (أما بعد) فقد قال الله تعالى :

﴿قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾[3].

---

(1) سورة آل عمران، آية : 85.

(2) من هداية المرشدين ص 406.

(3) سورة المؤمنون، آية : 1.

عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الاسلام ، من حافظ عليها فهو السعيد الرابح ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقي ، وان الخشوع فيها مع الاخلاص لله آية الايمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فان العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدى مولاه فى اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله ، انغرست فى نفسه خشية مولاه فى جميع أعماله وحضرته هيبة خَالقه فى عموم أحواله . فاذا سولت له نفسه أمراً ، أو زين له الشيطان سوءاً تَبَرأ منها قائلاً : إنى أخاف الله رب العالمين . فكن فى صلاتك خاشعاً ، وفى مناجاة ربك صادقاً فلا تقل الله أكبر وأنت تظن أن هناك من يساويه أو يدانيه فى عظمته ، لا تقل الحمد لله ربَ العالمين وأنت بالحلال لا تقنع . ومن الحرام لا تشبع ، لا تقل الرحمن الرحيم وأنت شديد البطش قاسي القلب على الضعفاء والمساكين ، لا تقل مالك يوم الدين وأنت لا تذكر الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين . لا تقل اياك نعبد وأنت تعبد هواك ودنياك ، لا تقل واياك نستعين وأنت تلتجئُ فى الشدائد إلى المخلوق وتترك باب مولاك . لا تقل اهدنا الصراط المستقيم وأنت منحرف عن طريق المهتدين ، لا تقل صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وأنت سيء الأخلاق حقود حسود ، نمام مغتاب ، غشاش كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين ، لا تقل ولا الضالين وأنت فاسد الاعتقاد شر فى الأعمال ، تُدَبّر الأذى وتكيد لأخوانك المسلمين ـ يا هذا ـ إن من حافظ على الصلوات فى الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته ، وحيل بينه وبين المحرمات وكان على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحيماً ، وأفلح فى دينه ودنياه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة

بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليضل المرء عن سواء السبيل ، ويقذف به فى مهاوي الشقاء والخسران ، والسيف القاطع ، والدواء النافع ، الذي جعله الله تعالى لـوقاية الانسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون) أيها الناس الله تعالى يقول :

﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[1] .

أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يسرعون فى أدائهـا وهم عنها غـافلـون . لا يعـرفون لها معنى ، ولا يعقلـون لها سراً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوساوسُ. وامتلأت قلوبهم بشواغل الدنيا ،

﴿واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ ،

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾[2] .

ومن الناس من عميت بصائرهم وتحجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، اهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته ، ولا سوء الحساب ، ولانار العذاب .

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ ،

فيا أيها المسلمون اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله باحسانه ، وغمرهم فى بحار رحمته .

﴿أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون﴾[3] .

---

(1) سورة الماعون ، آية : 4 .

(2) سورة الزخرف ، آية : 36 .

(3) سورة المجادلة ، آية : 22 .

في الحديث القدسي عن رب العزة - (**ما أقّل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى**). وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: (**إذا أحسن الرجل الصلاة فأتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة حفظك الله كما حفظتني فترفع، وإذا أساء الرجل الصلاة فلم يتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة ضيّعك الله كما ضيّعنى، فتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه**)[1].

خطبة للشيخ علي محفوظ

مواساة البؤساء:

الحمد لله الذى أمر بالاحسان ونهى عن الامتنان، الكريم الذي جازى الاحسان بالاحسان، لا إله إلاّ هو أرحم الراحمين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ذو فضل على العالمين وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام المحسنين وملجأ البائسين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الرحماء المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[2].

أيها الأغنياء، إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقكم من الطيبات، واغناكم عن الحاجة، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال، فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم، وأعزكم وأغناكم، وبذلك يحفظ عليكم نعمته ويتفضل عليكم بالمزيد منها، والبركة فيها

﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾[3].

(1) من هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ.
(2) سورة القصص، آية: 77.
(3) سورة ابراهيم، آية: 7..

وليس الشكر قولاً باللسان، وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة والاحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة، والفقراء المحتاجين من أرباب العيال. ومن القسوة أن تمنعوا المعونة، وتقبضوا أيديكم شحاً وبخلاً، (والشدائد) تميت البائسين، والضيق يقتل اخوانكم المحتاجين، أمن الرحمة أن تكونوا فى رغد من العيش، وسعة من الرزق، ومن أَخْنَى عليهم الزمان فى شدة من الضيق، وألم من الأعسار؟ أمن المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع فى الصباح والمساء؟ أمن المروءة أن تتمتعوا بملابس الزينة وأخوكم فى الإنسانية يحرقه الصيف، ويقتله برد الشتاء؟ اللهم إن الغنّي الذي لا يحس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقاً وواجبات، لقاسي القلب، خال من الشفقة بعيد من رحمة الله (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، أيها الناس: إن الله عزت قدرته، وجلت حكمته، قد وعد من انفق شيئاً فى سبيل الله أن يخلفه عوضاً، إما عاجلاً وَإما آجلاً، فقال جل شأنه:

﴿**وما انفقتم من شىء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين**﴾[1]،

فليس البخل والامساك بعد هذا الوعد الكريم الا من ضعف الإيمان، أو سوء الظن بالله الغني الحميد إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شيء من أسباب المعاش، ولو كانوا هم في أشد الحاجة، حيث قال عز وجل:

﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[2].

فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم، فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم، وإن هذا لهين على من عنده أدنى رأفة ورحمة منكم، إن هذا لهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح:

---

(1) سورة سبأ، آية: 39.

(2) سورة الحشر، آية: 9.

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1] ،

أيها الناس : صنائع المعروف من علامة الايمان وعلو الهمة ، وعنوان الشهامة والمروءة ، وانها تقي صاحبها مصارع السوء ، وتحفظه من المحن والبلايا ، وتجلب رضا الله واحسانه ، لا تكلفكم الانسانية من الإحسان إلا اليسير ، ولا تطالبكم المروءة الا بالشيء القليل ، فاصنعوا المعروف فى أهله ما استطعتم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وإن ما يضيعه الواحد منكم فى الكماليات لكثير ، ولقد ينفق الغني منكم فى جلسة قصيرة ما يكفي البائس الفقير زمناً طويلاً ، فأدخلوا السرور على المساكين بالبر والاحسان ، لعل الله يرحمنا ويكشف عنا ما نحن فيه من ضيق وشدة وذل وبلاء ، أسألوا عن المحتاجين في بيوتهم ، وعن المصابين فى أماكنهم ادخلوا عليهم وهونوا عليهم الشدائد والآلام وخففوا عنهم ما هم فيه من الأسقام والأحزان ، وتصوروا أنكم لَوْ كُنْتُمُ مثلهم فماذا كنتم تحبون أن يصنع بكم ، اتقوا الله واعطوهم من مال الله الذي أعطاكم وجعلكم نواباً عنه ، ووكلاء فيه ، يعطكم أجراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً ؛

﴿آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾[2] .

اعطوهم بعض ما يفضل عنكم ، فبذلك تملكون قلوبهم ، وتكسبون محبتهم ، وبذلك تتحد القلوب ، وتكون الألفة والإخاء : فتنصرون على أعدائكم ، وتبلغون غايتكم ، وتعيشون في بلادكم آمنين مطمئنين ، ويعمكم الله برحمته ويشملكم باحسانه ،

﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما

---

(1) سورة الحشر ، آية : 9 .

(2) سورة البقرة ، آية : 7 .

تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[1] .

في الحديث القدسي عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى :

(**انفق يا ابن آدم ينفق عليك**) متفق عليه من حديث أبي هريرة - وروى مسلم عنه أيضاً عن النبي قال : (**من نفس عن مؤمن كربه من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**) . وقال في الخطبة الثانية : أيها الناس - فينا من لا يئن لمتألم ، ولا يتوجع لمستصرخ ، ولا يحن لبائس فتجردوا من العاطفة الانسانية ، وحنان الإخاء الإسلامي ، وفقدوا الرابطة الدينية . وقد قال الله تعالى :

﴿إنما المؤمنون اخوة﴾

وقال ﷺ : (**المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رَأْسَهُ اشتكى كله**) رواه مسلم . فينا من يقع أمامه من الحوادث ما يؤلم القلب ويدمي العيون ، فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجده كالصخرة الصماء : كالحجارة أو أشدّ قسوة . . والذي نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم ، وخبث أرواحهم ، المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومالك الحق وخالق الخلق قادر على أن ينتزع عن الغني لباس غناه ، ويعطي البائس الفقير كل ما يرضيه من متاع الحياة .

﴿قل اللهم مالك الملك . .﴾ الآية[2] ، فاللهم أصلح أحوالنا ، وهبنا قلوباً رحيمة ونفوساً عالية وأرواحاً طاهرة يا ودود يا رحمن[2] .

---

(1) سورة البقرة ، آية : 272 .

(2) سورة آل عمران ، آية : 26 والخطبة من هداية المرشدين ص 419 .

خطبة للشيخ علي محفوظ

مضار شهادة الزور :

الحمد لله العليم الذي لا يخفي عليه شيء فى الأرض ولا في السماء، الشفيع البصير الذي يطلع على ما تكنه النفوس وتخفي الصدور : لا إله إلّا هو أعز الصادقين، وأذل الكاذبين وأشهد أن لا إله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الصدق والاخلاص في الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الهادي إلى الصراط المستقيم وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه القويم (أما بعد) فقد قال الله تعالى :

﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروراً كراماً﴾[1] .

أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته، قد اختار لكم الاسلام ديناً، ووعدكم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين، واهتديتم بنوره المبين، قال تعالى :

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2] .

أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائحه الغالية، وارشاداته الحكيمة، واتبعتم أهواءكم، ولم تراقبوا الله تعالى في أقوالكم وأعمالكم، ولم تخافوا شدة غضبه، وأليم عذابه، منع عنكم معونته، وأسلمكم إلى من لا يرحمكم وخسرتم الدنيا والآخرة :

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[3] .

---

(1) سورة الفرقان، آية : 72 .

(2) سورة النحل، آية : 97 .

(3) سورة فصّلت، آية : 46 .

وان الله تعالى جل شأنه قد حرّم فى هذا الدين قول الكذب وشهادة الزور، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدة قبحه. قال تعالى:

﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾[1].

والرجس: النجس القذر. والأوثان: الأصنام التى كانت تعبد من دون الله سبحانه، وعبادة الأصنام شرك. وقول الزور معه من أَكْبَرِ الكبائر - أيها الناس: أيدرى شاهد الزور إلى من أساء، أساء إلى نفسه، اسقط مروءته، أضاع منزلته وكرامته، وسجل على نفسه عاراً لا يزول، وخزياً لا يمحى، وألقى بنفسه فى نار حرها شديد، وعذابها أليم:

﴿ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء﴾[2]،

وأساء، إلى من شهد عليه، أَهَانَهُ وأضاع حقه. وقطع صلة الأخاء التى تجب بين المسلم والمسلم. وظلمه وخذله وخالف فيه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: **(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم)**. وأساء إلى من شهد له، أضربه حيث يريد أن ينفعه أعانه على الظلم، وأوقعه في الحرام، وعرضه لمقت الله وغضبه، وصيره ذليلاً بين يدي المنتقم الجبار، الحكيم العادل، الذي يأخذ من القوي للضعيف. وينصر المظلوم من ظالمه، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين، يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم، يوم لا ينفع مال ولا بنون:

---

(1) سورة الحج، آيتا: 30 و 31.

(2) سورة الحج، آية: 18.

﴿وتـرى النـاس سكـارى، ومـا هم بسكـارى ولكـن عـذاب الله شديد﴾[1].

وأساء إلى القاضي: أتعبه وأضاع عليه وقته، وطمس عليه معالم الحق، ولو صَدَقَهُ لأراحه وأراح الناس أجمعين. بل أساء إلى الأمة كلها: لوث سمعتها، وأضاع الثقة بها، وكل أمة فشا فيها الزور والكذب سقطت من عيـون الأمم، وأصبحت فى عداد الهالكين. أيها النـاس: ما الـذى يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميم، وذلك الموقف المخجل المعيب إذا كَانَ مالاً يأخذه ممن شهد له فهو سحـت لا بركة فيه، بل هو وبال عليه في الدنيـا، وعذاب له في الآخـرة، وكل لحم نبت من حرام فالنـار أولى به ـ وإن كان الحامل له على الزور صحبته للمشهود له أو طلب رضاه، فبئست هذه الصحبة التي تؤدي إلى سقوطه وخسرانه، وتوقعه في سخط الله وغضبه. قالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى النـاس، وشاهد الـزور قد أرضى صاحبـه وأغضب مولاه، فخذله وقطع عنه رحمته واحسانه ـ وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق، فالصدق ينجيه، وتقوى الله تحميه.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[2].

قالت عائشة رضي الله عنها لمعاذ: «اتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً» فاتق الله أيها المسلم في نفسك وفي أمتك. اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق، وانصر الحق واشهد بما رأيت، بلا فرق بين القريب والبعيد والصديق والعدو.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم

---

(1) سورة الحج، آية: 2.

(2) سورة النحل، آية: 128.

أو الوالدين والأقربين﴾[1] .

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً قلنا بلى يا رسول الله ، قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ــ وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور فَما زال يكرهها حتى قلنا ليته سكت»** متفق عليه .

وقال في الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل في كل شيء ، وأن ينصف الحق أينما كان . قال تعالى :

﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين**﴾ الآية ، أي كونوا مواظبين على العدل في جميع الأمور ، مجتهدين في إقامته ، لا يصرفكم عنه صارف ، شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهاداتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوي ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، ان يكن كل من المشهود له أو عَليه غنياً يرجى خيره ويخشى ضره ، أو فقيراً يُرْحَمُ ويحنى عليه ، فلا تَجُورُوا فيها ميلاً أو ترحماً ، ولا تشهدوا للغنى طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفاً منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغني والفقير بالنظر لهما منكم ، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لَمَا شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم[2] .

خطبة للشيخ علي محفوظ:

في التحذير من الغش في المعاملات وسوء عاقبته :

الحمد لله الذي كرّم الانسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ،

---

(1) سورة النساء ، آية : 135 .

(2) من هداية المرشدين ص 440 .

ونهاه عن الكـذب والغش والخيانـة ، لا إلـه إلا هو الحكيم العليم ، وأشهـد أن لا إلـه إلا الله الشديـد البطش بالخائنين ، وأشهـد أن سيدنـا محمداً رسـول الله تبرأ من الغش وحـذر منـه جماعـة المسلمين اللهم صلِّ وسلّم على سيـدنـا محمـد وآلـه وصحبـه والحافظين لحدود الله . أما بعـد فيـا أيها المسلمـون : إن الأرزاق لا تكـون بـالخداع ولا بـالمقـدرة ، وإنما هي كـالآجـال مقـررة عنـد الله ومقدرة ، فـلا يفوت العـاجز رزقـه ، ولا يحصِّل فوق مـا قسم لـه القادر القوي ، فيـا أيها الغاش هل يأتيك الغش برزق غير المقسـوم؟ ويا أيها الحالف بـالأيمان الكاذبـة هل يأتيك الحلف المكـذوب بشيء سوى مـا أراده لك الحيّ القيـوم؟ «كلا» والله لا يصيبك في الـدنيا إلا مـاقضاه الله عليك ، ولاّ ينـالك منهـا إلا مـا قسمه اَلله لـك . فما هذا التـدليس الـذي لا يكسبك إلاّ شكـا في قضاء الله تعـالى ، وما ذاك الغش الـذي لا يفيدك إلا الـوزر والخزي والعار ، وما عـاقبةُ ذلك كلـه إلا ضياع الثقـة وغمّ المصائب وهمّ الخسـائر ـ فـوالله ما تقدم عامل خـان في عمله ، ولا نجح صانع دلّس في صناعتـه ، ولا ربح تاجر غش في تجارتـه ، وما هي إلا أيـام معـدودة ثم تنصرف الناس عنـه وتغلق في وجهه أبواب الـربح ، وتذهب البركة من عمل يـديه وربما دارت عليه أو على ذريته الـدوائر ، أيها الناس : إن الغش لـذنب كبير ، لا يكون إلا مـن نفوس خبيثـة طاغيـة وإن الأيمان الكاذبـة لا تصـدر إلا عن قلوب مظلمـة قاسيـة . وكلاهما تغريـر بالناس وتلاعب بـالدين ، وخسران مبين . لقد أغضبت ربك أيها الحالف كذباً لترويج الصنعة أو البيـع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى لاكلكَ أموال النـاس بالبـاطل ، واهمالك لسنته ، واهمالك لـــدينــه ، وخـــروجـك عن ملتـــه . بـــرعت في ضروب النصب والاحتيـــال ، وتفننت في أنـــواع الغش والخداع ، لا تـــراعي مخلـــوقـــاً ولا تخشى خالقـاً ، فلا حـول ولا قوة إلا بـالله ؛ يدخل الانسـان على الصانع ، أو يقف المشتري أمَامَ البـائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبـة ما يخدعه بـه ، ويوهمه

أنـه أجود من صنـاعـة أو بضاعـة فـلان وفـلان، وأرخص مما يبـاع في جميع الحوانيت، والله يعلم أنه كاذب،

﴿ويحلفـون على الكذب وهم يعلمـون، أعـد الله لهم عذابـاً شديـداً انهم ساء ما كانوا يعلمون﴾[1].

ولقد صـار الغش في كل شيء حتى اللبن في ضرع الحيـوان، ولو أمكنهم أن يبيعـوا التراب ذهبـاً لفعلـوا بـلا مبـالاة ولا حيـاء، ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام، وأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به وليعلم الحالف كذبـاً أن حقوق الذي خدعه محفوظـة يستوفيها من حسناته في يوم لا درهم فيه ولا دينار، أيها الناس: إن الصناع والتجار من أكثر النـاس اعتماداً على الله، يفتحون محلاتهم كل يـوم يبتغون من فضل الله، لا يعتمدون على وظيفـة ولا مرتب، فما أحسنهم إذا كـانوا أمناء صادقين. قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: **(التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهـداء والصالحين) ومـا أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله والناس، لم تشغلهم أعمالهم عن الله.**

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[2].

فيـا أيها المسلـم إتق الله وارض بما قسم الله لك، واحفـظ نفسك من الافلاس في الدنيا ومن خزي يوم القيامة، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه؛

﴿واتقو يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[3].

(1) سورة المجادلة، آيتا: 15 و 16.
(2) سورة النور، آيتا: 37 و 38.
(3) سورة البقرة، آية: 281.

في الحديث القدسي يقول الله تعالى: (عبدي إن رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك، وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندي مذموماً) وفي صحيح مسلم (أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال أصابته السماء يا رسول الله قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس (من غشنا فليس منا). وفيه أيضاً أن رسول الله ﷺ يقول: (اياكم وكثرة الحلف في البيع فانه ينفق ثم يمحق). أي يروج السلعة ثم يذهب البركة من كسب البائع[1].

خطبة للشيخ البشير النيفر المفتي المالكي بتونس

في تعمير الأرض بالغرس وغيره:

الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وأودع ظاهرها وباطنها من ضروب الخير كثاراً، وضعها للأنام، فيها فاكهة والنّخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان، فتبارك الّذي شملت رحمته الخليقة من إنسان وحيوان.

ونشهد أنّه الله الّذي لا إله إلاّ هو، ﴿يسأله من في السَماوات والأَرْضِ كلَّ يومٍ هُوَ في شأْن﴾[2].

يجيب داعياً، ويفكّ عانياً، ويقصم طاغياً، ويذكر ساهياً، ويشفي سقيماً، ويكسب عديماً وكان الله على كلّ شيء قديراً، وبكل شيء عليماً.

---

(1) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص 467.

(2) سورة الرحمن، آية: 29.

ونشهد أنّ سيدنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله، سعد ببعثته الثقلان، صلىّ عليه وآله وصحبه والذين اتّبعوهم باحسان، وسلّم تسليماً.

أمّا بعد، فيا أيهُّا الناس، يقول الله مذكّراً بنعمته على خلقه، ومنبّهاً على تقصيرهم في القيام بحقّه:

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾[1].

ذلك أن من نعم الله على الانسان أن مكّن له في الأرض تمكيناً، وجعل له عليها سلطاناً مبينا. وسخّر ما فيها من ضروب الخيرات، لمنافع الأفراد والجماعات. وجعل له فيها معايش وهي ما يكون به العيش من مطاعم ومشارب وغيرهما، وما يتوصل به إلى ذلك مما يختلف باختلاف الزمان والمكان، ويقتضيه ترقي الانسان في مَدارج العلم والعرفان، ولكن النّاس قليلاً ما يشكرون.

وشكر النّعمة أن تعرف أنهّا لمن أنعم بها، معترفاً أنّه الّذى أسداها إليك، ومنّ بها عليك، ثمّ تحمده على فضله، وتتصرّف بها وفق ما منحت من أجله، من حفظ الصحّة البدنيّة، والاستعانة بها على حفظ الحياة الروحيّة، وما تتزكى به الأنفس وتسعد السعادة الأبديّة. والنّعم إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فَرَّت.

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[2].

فاحذر أيهُّا الانسان، أن تتبدّل الكفر بالشكران، فَتَبُوءَ بالخيبة والخسران،

---

(1) سورة الأعراف، آية: 10.

(2) سورة النحل، آية: 112.

﴿ومن شكر فانّما يشكر لنفسه ومن كفر فانّ ربيّ غنّي كريم﴾[1].

واعلم أن الله بفضله ورحمته، سخّر ما في السموات وما في الأرض جميعاً لفائدة الانسان ومنفعته، قال الله تعالى

﴿ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾[2].

وممّا قيل في النعم الظاهرة على الانسان، كمال خلقته وصحّته، وفي الباطنة عقله ومعرفته. وهو مرويّ عن الضّحاك من مفسري السّلف. فكمال خلق الانسان وصحته، وعقله ومعرفته، من أكبر أعوانه على الانتفاع بما سخّر الله له جلّت نعمته، وبهرت حكمتـه. واذن فتوجيه العناية إلى الأرض باحياء مواتها، واستخراج خيراتها، والبحث عمّا بباطنها، من ميـاهها ومعـادنها، إلى غيرها ممـا أودع فيهـا فضلاً من الله ونعمـة والله عليم حكيم، توجيه العناية إلى ذلك كلّه مما لا يصطدم بالدّين بل الدين يدعو إليه، والله يتولى من أخلص فيه النيّة بالإثابة عليه.

وفي الحديث: (**من أحيا أرضاً ميّتة فله فيها أجر. وما أكلت العافية فهو له صدقة**). رواه أحمد والنّسائى وابن حبّان في صحيحه والضياء بسند صحيح عن جابر.

وفى «الترغيب والترهيب» للحـافظ الأصفهـاني بـاسنـاده أنّ رسول الله ﷺ قال: (**من أحيا أرضاً ميّتة ثقة بالله واحتساباً كان حقاً على الله أن يعينه وأن يبارك له**).

وروى أحمد من طريق زيان: (**من بنى بنياناً في غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء كان له أجراً جارياً ما انتفع به**).

وفي الحديث الجمع بين تعمير الأرض بالبنـاء وغيره. وقد حكى

(1) سورة النمل آية: 41.

(2) سورة لقمان، آية: 20.

القرآن عن صالح ـ عليه الصلاة والسّلام ـ أنّه قال لقومه:

﴿أعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[1].

قال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار. وقيل: المعنى ألهمكم عمارتها من الغرس والحرث وحفر الآبار وغيرها. وكان قوم صالح زرّاعاً صنّاعاً وبنّائين.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ (**لا يغرس مسلم غرساً ويزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا طائر ولا شيء إلاّ كان له أجر**) رواه الطبراني في الأوسط باسناد حسن.

وروى البزار والبيهقي وأبو نعيم من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (**سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره: من علّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له**).

والحديث الشريف ينتظم جملة من الواجبات الدينية، وفريقاً من المصالح التي عليها مدار الحياتين الروحيّة والبدنيّة، وللتفصيل مقامات، وانّما الأعمال بالنيات.

ويروى: «أنّ بعض الصحابة مرّ بأنصاري يغرس نخلاً، فقال: يا ابن أخي إن بلغك أنّ الدجّال قد خرج فلا يمنعك من أن تلبأها»، أي لا يمنعنك خروجه عن غرسها وسقيها أول سقية، مأخوذ من اللبأ.

فتعمير الأرض باجراء الأنهار، وحفر الآبار، وغرس الأشجار، والبحث عما أودعها الله من خير جمّ، يكفيى النّاس ما أهم، ويسعدهم على اصلاح شؤونهم ما خصّ منها وما عمّ، كلّ ذلك مما جات به الكتاب وسنّة الرسول ﷺ.

---

(1) سورة هود، آية: 61.

فلنحمد الله على هذا الدّين، ولنأخذ بهدايته مغتبطين مجدّين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿فستبصر ويبصرون بأيّكم المفتون إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

خطبة في كفالة اليتامى والتحذير من استلحاقهم:

للشيخ البشير النيفر المفتي المالكي بتونس:

الحمد لله الذي يرحم من عباده الرحماء ويجزي من جاء بالحسنة خيراً منها تفضلاً منه وكرماً، ويرفع الجزاء إلى سبعمائة ضعف بفضله العظيم، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، نحمده سبحانه على ما اسدى من نعم، وحرّك لفعل الخير من همم.

ونشهد أنّه اله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم، ونشهد أن سيّدنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، والآمر بتقوى الله في الضعيفين: المرأة الأرملة والصبيّ اليتيم، ﷺ أفضل الصّلاة وأزكى التسليم، والتحيّة والرضوان على عترته الطاهرة، وأزواجه اللائي يردن الله ورسوله والدار الآخرة، وعلى أصحابه ليوث الملاحم، والبحار الزاخرة بالمراحم.

أما بعد، فيا أيُّها النّاس: يقول الله جلّ أمره:

﴿واحسنوا إنَّ الله يحبّ المحسنين﴾[2].

ويقول صدق وعده

(1) من نبراس المرشدين والآية 5 من سورة القلم.

(2) سورة البقرة، آية: 195.

﴿للّذين احسنـوا في هذه الدنيـا حسنة ولـدار الآخرة خير ولنعم دار المتّقين﴾[1].

ويقول رسوله ـ ﷺ ـ : **(خير النّاس أنفعهم للناس)**. رواه القضاعي من حديث جابر، وهو حديث حسن لغيره ويقول: **(الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)**. رواه البزار من حديث أنس والخطيب عن ابن مسعود وهو حديث حسن لغيره.

ومعنى عيال الله الفقراء إلى الله وهـو الّذي يعولهم، وأحبّهم إلى الله أنفعهم للخلق بهدايتهم إلى الله تعالى وتعليمهم ما يصلحهم والعطف عليهم. ثمّ إن النّاس يتفاوتون في الحاجة إلى العطف، بقدر تفاوتهم فيما هم عليه من الضعف، ولذا كثرت الوصايا باليتيم، في أكثر من آية حكيمة وحديث كريم.

قال الله تعالى:

﴿ويسئلـونك عن اليتـامى قل اصـلاح لهم خير وان تخالطـوهم فاخوانكم﴾[2].

وقال:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً وبالوالدين إحسانـاً وبذي القربى واليتامى﴾[3].

وجاء في مقام الذم

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾

وفي الحديـث: **(اتّقـوا الله في الضعيفين: المرأة الأرملـة، والصبي اليتيم)**. رواه البيهقى عن أنس وهو حديث حسن.

---

(1) سورة النحل، آية: 30.

(2) سورة البقرة، آية: 20.

(3) سورة النساء، آية: 26.

هذه شـذرات من تلكم الـوصايـا الالهية، من بين آيـات حكيمة وأحاديث سنّية، ونحن نعلم أن ما نزل بالسّاقية اليوسفيّة من قذائف العدوان الأثيم، قـد وفّـر في هذه الأمة من عدد المحتاج اليتيـم، وصار هؤلاء اليتامى في حال اضطرار إلى من يقوم بتغذيتهم، ويتولى ما كتب الله من ذلك ومن تعليمهم وتربيتهم، ألا إن من يقوم بهذا الواجب لليتيم، لفائز إن شاء الله بأجر كريم، ورضوان عظيم، ومنزلة سامية في دار النّعيم، ومن خلص عمله، لم يخب أمله.

ألا يهزّنا أيها المؤمنون قوله ﷺ فيما رواه سهل بن سعد ـ رضى الله عنـه: (**أنا وكـافل اليتيم في الجنة هكذا وأشـار بالسبابة والـوسطى وفرج بينهما**). رواه البخارى وأبوداود والترمذى.

وقوله ﷺ ـ: (**من كفل يتيماً له ذا قرابة أو لا قرابة له فأنا وهو في الجنّة**) رواه البزار.

وقوله ﷺ فيما رواه ابن ماجه من حديث ابن عباس: (**من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغدا وراح شاهراً في سبيل الله**).

وقوله ﷺ فيما رواه ابن عباس أيضاً: (**من قبض يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنّة إلاّ أن يعمل ذنباً لا يغفر**). رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

ثمّ ليحذر الذين يكفلون الأيتام، أن تذهب هذه الحسنة الكبرى بكبيرة من كبائر الآثام تلكم الكبيرة، وما أدراك ما تلكم الكبيرة، كبيرة الاستلحاق اللعين، التّي يتردى في هوّتها بعض الكافلين مع المكفولين، حتّى يشملهم بهذا من الأحكام ما اختص الله بـه البنين، مما ينزل الله به سلطاناً، وإنّما تنزلت به الشّياطين.

وقد عرف هذا التبنّي في الجاهلية، ثمّ كان فيما قضى عليه الدّين.
وقد أنزل الله في إبطاله قوله:

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدّين ومواليكم﴾(1).

وفي الحديث (من استلحق شيئاً ليس منه حتّه الله حتّ الورق ؛ أي قطع الله نفعه مثل قطع نفع ورق الشجر بسقوطه). رواه المقدسي عن سعد.

جعلني الله وإياكم من أهل البرّ والاحسان، ووفقني وإياكم إلى ما يثمر التوبة والرضوان، وصرفني وإياكم عمّا فيه شائبة الفسوق والعصيان. إنّ خير ما تلاه التالون، وذكّر به الواعظون النّاصحون كتاب الله الّذي نحن به مهتدون وهادون.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة، أولئك أصحاب الجنّة، هم فيها خالدون﴾(2).

خطبة للشيخ البشير النيفر المفتي المالكي بتونس
في التحذير من التهاون بقضاء الدين:

الحمد لله على إسعاده وإمداده، وهو المسؤول أن يقينا شرّ التقصير في حقه وحق عباده. والصّلاة والسلام على سيّدنا محمد الذي هدانا سبيل الرشاد، وما به النجاة من قول وعمل في المبدأ والمعاد، وعلى آله وصحبه وأهل محبّته ووداده.

أمّا بعد، فيا أيّها الناس: جاء عن نبيّنا سيّدنا محمّد ـ ﷺ أنّه قال (إنّ

(1) سورة الأحزاب، آية: 4.

(2) من نبراس المرشدين ص 302 والآية من سورة يونس رقم 26.

أعظم الذنـوب عند الله «أي من أعظمها» أن يلقاه بها عبد، بعـد الكبائر التي نهى الله عنها، أن يموت الرّجل وعليه دين لا يدع له قضاء). رواه أحمد وأبو داود عن أبي موسى الأشعري. والحديث جيد حسن الاسناد.

فاستهانـة الانسان بما عليه من الديون، حتّى يجيئـه المنون، مما لا يأتي به إلاّ الخاطئون، وقد نطق الحديث بـأن هذا من أعظم الذنوب، والمراد المستخفّون والمقصرّون. وقد تفشّى هذا الخلق اللّعين، وهو مما يمقته الدّين، وضعفت الحركات المالية إذ ساء الظنّ بالأمين.

وينتظم مع هذ الحديث حديث: (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثمّ دينار ولا درهم). أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر.

اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمّـد رسولك الأمين، وارض عن آله وصحبه وأزواجه والتّابعين. اللهم أغفر لنا وارحمنا وعافنا وارزقنا[1].

خطبة الجمعة بالمسجد الحرام: ونشرت بمجلة أخبار العالم الإسلامي

ألقـاها بتـاريخ جمادى الأولى 91هـ فضيلة الشيخ عبـد الله خياط.

عندما تتشعب السبل وتظهر الفتن:

الحمد لله الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، أحمده سبحانه وهـو الـرب الكـريم العظيم، وأشهـد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالنهج القويم

(1) نبراس المرشدين لفضيلة الشيخ محمد البشير النيفر ص 403.

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه.

أما بعد فيا عباد الله عندما تتشعب السبل وتظهر الفتن يردف بعضها بعضاً وأعظم الفتن ما كان فى الدين يقع المسلم في حيرة من أمره وخشية من عاقبته، لو سار في السبل المتشعبة وإندفع نحو الفتن المترادفة فيطلب الانقاذ ويجد الداعي إليه رب العزة إذ يقول:

﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1].

وان أخطر ما يواجه المسلم في أعقاب الزمن السُّبل المتعرجة التي لا توصل إلى غَايَة بل تدفع إلى الهاوية وعلى كل سبيل دعاة يدعون إليه تكثيراً لسوادهم وحرصاً على انتهاج مناهجهم كما جاء في الحديث إذ يصف الرسول صلى الله عليه وسلم واقع دعاة الضلال فيقول ـ دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها إنهم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ـ أي أنهم يزينون للناس مذاهبهم ويزوقونها بالبهارج الزائفة ـ وكم قد أضل هذا الفريق أقواماً وخدعهم عن دينهم وسلوك سبيل ربهم ومن أمثلة أقوال أولئك المفتونين التي يخطب بها ويكتب في جرأة دون مراعاة لشعور المسلمين وتقديسهم لدينهم ويقول في القرآن برأيه وحسب مفهومه الضال معلقاً على قول الله تبارك وتعالى:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾[2].

ويقول وبئس ما يقول إن إرسال النظر لا ضرر منه ولكن الضرر فيما يجرى في القلب والعقل نتيجة إمعان النظر، ولو أخذنا الآية بظاهر حروفها فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في زماننا زمن الصدور العريانة والشعر المرسل سوف نجد أمراً صعباً أي من تطبيق الآية:

---

(1) سورة الأنعام، آية: 153.

(2) سورة النور، آية: 30.

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إنْ يقولون إلاَّ كذباً﴾[1].

إن الحكمة في غض البصر للمؤمنين والمؤمنات ما أوضحه الله بقوله في نفس الآية :

﴿ذلك أزكى لهم﴾.

فالتزكيـة هدف رفيع يطلبه كل عاقل رشيد إذ فيها سـلامة دينه وشرفه وصدق الله وكذب دعاة وانصـار الإنطلاقة المجنونة وافظع من ذلك وابشع الدعوة من التحلل من الدين وهدى المرسلين ، والجحود لباري الكون ومدبره وترويج كل ما يطبع وينشر من كتب الالحاد ودعايات الملحـدين وإنكـار البعث والمعاد والحشر والحسـاب ومـا إلى ذلك من عالم الغيب وانها يا عباد الله لردة عن الدين يروجها الملحدون .

﴿ومن يرتـد منكم من دينه فيمت وهو كـافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2] .

تلكم يا عباد الله نماذج من السبل الملتوية التى حذر منها رب العزة عباده ونهاهم أن يسلكوا مسالك أهلها ، وضروبٌ من الفتن التى اطلعت على الناس رؤوسها فى أعقاب الزمن ، والتي أضحت خطراً على الأمة وعلى الشباب دعامة المجتمع المسلم ، والتي صورها الرسول الكريمﷺ في حديث طويل فقال «وإن أمتكم هذه جعل الله عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأتـه منبته وهـو يـؤمن بـالله واليوم الآخـر» أي لم يفتن بـالفتن التي ظهرت على الأمة في أعقاب الزمن بل تمسك بدينه وقبض عليه كالقابض على الجمر وان رموه بالرجعية وسخروا من مسلكه أو تعرضوا له بأذى

(1) سورة الكهف ، آية : 5 .

(2) سورة البقرة ، آية : 217 .

فلقد ضرب الله المثل اللاحق بالسابق في تمسكه بدينه وتعرضه للفتنة وصدقهم في إيمانهم كما قال تعالى :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1] .

فاتقوا الله عباد الله وحذار من سلوك السبل الملتوية والاندفاع نحو الفتن المتعاقبة في مختلف دروبها ففي ذلك الضلال البعيد والخُسْران المبين أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾[2] .

نفعني الله وإياكم بهدى كتابه ، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

خطبة الجمعة بالمسجد الحرام: ونشرت بمجلة أخبار العالم الإسلامي

ألقاها بتاريخ 10 رمضان المبارك 1 9هـ فضيلة عبد العزيز آل الشيخ .

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ظهير ولا معين ، وأشهد أن نبينا

(1) سورة العنكبوت ، آيات : 1 ,2 ,3 .

(2) سورة البقرة ، آية : 130 .

محمداً عبده ورسوله نبي الهداية والرحمة فقد بلغ رسالة ربه، وجمع الله به الشمل، ووحد به الكلمة، وأنار به الطريق، اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابته أهل العلم والدعوة والجهاد.

أما بعد فيقول الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[1].

عباد الله الاسلام دين التوحيد دين الفطرة دين جميع الأنبياء والرسل لا يسع أحداً الخروج عنه.

﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾[2] **﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾**[3]

وقد أخبر رسول الله ﷺ، فى الحديث الصحيح أن الإسلام له أركان بني عليها لا يكون العبد مسلماً حقاً إلا إذا أقرّ بها وأداها كاملة أداها بإيمان واخلاص، أركان خمسة، أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام على من استطاع، فشهادة أن لا إله إلا الله تحتم أن تؤدَّى جميع العبادات لله وحده، فلا دعاء إلا له ولا استعانة إلا بالله وحده ولا خوف ولا رجاء إلا منه لا شفاعة لأحد إلا باذن الله ورضاه، وما لم يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت فشهادته غير نافعة ما لم يتبع القول العمل، والطاغوت كل معبود غير الله، يقول رسول الله ـ ﷺ من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله، فبهذا الحديث لا يحرم الدم والمال حتى يضاف إلى شهادة أن لا إله إلا الله الكفر بما يعبد من دون الله،

---

(1) سورة آل عمران، آيتا: 102 و 103.

(2) سورة آل عمران، آية: 85.

(3) سورة آل عمران، آية: 19.

وهـذا هـو معنى لا إلـه إلاّ الله حيث تثبت الالـوهيـة وجميع العبـادات لله وحـده وتنفيهـا عن غير الله كـائنـاً من كان وهـى كلمة التـوحيـد وكلمـة الاخلاص وبـالشهادتين يكـون الاسلام إذا عمـل بمقتضاهـا: شهادة أن محمداً رسول الله تستلـزم طاعته في أمره حين يأمر وتـرك ما ينهى عنه حين تستلزم تحكم شريعته وقبول حكمه والرضى به والتحاكم إليه ـ ﷺ.

﴿فـلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجـر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[1].

﴿ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2].

الصلوات الخمس في اليوم والليلة فريضة والركن الأهم في الاسلام بعد الشهادتين أداؤها تامة وباخلاص شرط لصحتها فريضة مقبولة إذا أديتْ لله بايمان وخشوع تنهى عن كل فحشـاء ومنكر والا لم تكن صلاة مقبولة ولم تُؤدِّ هذا الركن من إسلامنا أداءً صحيحاً.

﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[3].

فكيف يصح إسلام من تركها بعد كل ذلك فأداؤها جماعة فى بيوت الله واجب لا يجوز التخلف عنه بدون عذر وفي أدائها جماعة التزام وارتباط مع جماعـة المسلمين في وقت محدد وفيـه توجيـه وتـدريب على الطاعـة والاقتـداء فيه اتصـال باخـوانـه المسلمين وتفقد لأحـوالهم والمتخلف عن الجماعـة يفـوتـه الأجـر الكثير وقد يـؤخـرهـا عن وقتهـا حيث لا التزام ولا ارتباط. زكاة المال ركن الاسلام متى ما أخرجت بإيمان واخلاص طاعة لله طهّرت المال وزكّت النفس وابعدتها عن البخل والشح حق للفقراء والمساكين ومن ذكرهم الله فى قوله:

---

(1) سورة النساء، آية: 65.

(2) سورة الحشر، آية: 7.

(3) سورة العنكبوت، آية: 45.

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾[1].

جزء يسير من المال على من يسره الله عليه متى أخرج باخلاص وبطيب نفس ووصلـه إلى مستحقه من ضعفـاء ومحاويج طابت نفـوسهم واطمأنت وطهرت نفس المزكي وَنَمَـا ماله وحفظ من الآفات فاتقوا الله عباد الله وأتوا زكاة أموالكم يبارك لكم فيها ويصلح الله لكم أعمالكم اجيبوا داعي الله واخلصوا له النية والعمل، صـوم شهر رمضان أحد أركان الاسلام أجـر صومه كبير والجَزَاءُ عليه عظيم الحسنـة بعشر أمثالها إلى أضعـاف كثيرة أعمال العباد لهم إلا الصوم فـإنه لِلَّهِ يتقبلـه من عباده ويثيبهـم عليه والله عنده حسـن الثواب يدع الانسان طعامه وشرابه ويمنع نفسه عن الشهوات تقرباً إلى ربه وتعبداً له يرجو رحمته وعفوه وَبِرِّهُبالصوم تصح الأَجْسَام وتزكو النفوس وتعتاد الصبر وتحمل المشـاق، بالصـوم يعرف المسلم نعَـم الله عليه وبتـذكر حـالة الفقـراء والبائسين فيعطف عليهم ويبـادر إلى سَدّ حاجَتهم ومواساتهم خـامس أركان الاسلام حج بيت الله لمن استطاع السبيلَ إليه يقول الله تعالى:

﴿ولله على الناس حج البيت مَن استطاع إليه سبيلا﴾[2].

والسبيل الاستطاعة بالمال والبدن فالحج يا عباد الله إلى بيت الله العتيق فريضة فى الاسلام في العمر مرة واحدة وبعدها تطوع يكفر الله به الذنوب ويعفو به عن السيئات ويضاعف به وبالأعمال الصالحة الحسنات فالحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة. فاتقوا الله عباد الله وادوا ما فرض الله عليكم باخلاص وعن إيمان اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةواطيعوا الله ورسوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(1) سورة التوبة، آية: 60.

(2) سورة آل عمران، آية: 97.

﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[1].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه، إنه الغفور الرحيم.

خطبة الجمعة بالمسجد الحرام:

ونشرت بمجلة أخبار العالم الاسلامي

ألقاها بتاريخ 20 رجب 91هـ فضيلة الشيخ محمد بن سبيل.

«الاحسان إلى الجيران وكف الأذى عنهم»

الحمد لله الذي أسعد بجواره من خافه ورجاه وَمَنَّ بجنته على من امتثل أمره واتقاه أحمده سبحانه حمد معترف له بنعمائه واشكره على ما أولاه وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحنفا وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فيا عباد الله. اتقوا الله حق تقواه واعلموا ان المؤمن الصادق في إيمانه حَذِرٌ في كل أحواله يراقب ربه ويخاف من سطوته ويتبع أوامره ويتجنب نواهيه يسابق إلى الخيرات ويتجنب المنكرات يحب في الله ويبغض في الله ويعادي في الله ويوالي فى الله يأتمر حيث أمره وينتهي حيث نهاه الا وان مما أمر الله به وحث رسوله عليه ﷺ حفظ الجوار ومعرفة حقه والقيام به امتثالاً لأمر الله وعملاً بقول رسوله ﷺ.

فقد قال الله عز وجل:

---

(2) سورة الحج، آية: 77.

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً وبالوالدين إحسانـاً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار وذي القربى والجار الجنب . . ﴾[1].

وقد قال رسول الله ﷺ : «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

وقد قال عليـه الصلاة والسلام «**من كان يؤمن بـالله واليوم الآخر فليكرم جاره**».

وقوله عليه الصلاة والسلام «**لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه**».

عباد الله . إن للجار حقوقاً على جاره أوجبها الشارع وحث عليها إن القيام بها من الدين ومـن المروءة ومن مكارم الأخلاق ومن كمال الايمان إن الاحسان إلى الجيران وتفقد أحوالهم ورعاية شؤونهم والعطف عليهم والتلطف بهم وارشـادهم ونصحهم والاهتمام بأمورهم مِمّا أمـرنا بـه ديننا ، إن الشريعـة الاسلامية كما جعلت للقـريب حقاً على قريبه فقـد جعلت للجار حقاً على جاره فعليك أيها المسلم بمعرفة حق جارك والقيام به لتمتثل أوامر ربك وإرشاد نبيك وتحرز السمعة الحسنة وتنال الأجـر من الله وتكمل إيمانك لقوله عليه الصلاة والسلام ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، أيها المسلم : لاتستكثر حق جارك مهما عملت معـه فلك فى الاحسان إليه المكانـة العالية والمنزلة الرفيعـة والأجر الوافر لقد أكد المصطفى حقـه امتثالاً لوحي ربه فقد قال عليه الصلاة والسلام، مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، عبـاد الله : إن أذية الجار من الأمور المحرمـة ومن الأدلة على عدم الوفاء وعدم كمال الايمان ومن قلة المروءة ومن ضعف الوازع الدينى أن التقصير بحقوق الجوار ليس من أخلاق الكـرام ولا من صفات المؤمنين إنه خلاف طـريقـة المصطفى عليـه من الله أفضل الصـلاة والتسليم إنـه مخالف لهدى صحابته الكـرام الذين يؤثرون على أنفسهم، يؤثرون ضيـوفهم ويؤثرون

---

(1) سورة النساء، آية : 36.

جيرانهم يـــواســـــونهم فى نفعهم ويكفــون عنهم أذيتهـم خيرهم لجارهم مبذول وشرهم عنـه معزول إن بـدرت منه بادرة سـوء تحملوا وصبروا وإن نالهم منـه إحسان كـافأوه وشكروه. إن الاحسـان إلى الجار والصبر على ما ينالك منه من علامة توفيق الله لك ومن أسباب الفلاح والنجاح تحصل لك محبة الله ومحبّة عبـاد الله المؤمنين يشكرك على ذلك جيرانك وغيرهم يحمدك الناس ويثنون عليك ويشكرك على فعلك واحسـانك من لا يناله معروفك وبعكس ذلك من يؤذي جيرانه يبغضه جيرانه ويكرهه الناس على سوء فعله يشتمونه ويدعون عليه ويلومونه على ذلك جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره فقال له النبى ﷺ اصبر ثم قال له في الثالثة أو الرابعة أطرح متاعك في الطريق قال فجعل الناس يمرون به ويقولون ما لك فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون لَعَنَـهُ الله فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود.

إن من حقوق الجيران كفّ الأذى عنهم، وبذل الندى لهم، واستعمال الرفق بهم، وإسداء الخير والمعروف لهم واظهار البشر والسرور فيما يسرهـم وتعـزيتهم بمصيبتهم وعيـادة مريضهـم وحضور دعـوتهم ومـلاطفتهم، والاحسان إلى صغيرهـم وكبيرهـم بالقول اللين والبشاشة وبذل ما تقدر عليه من مساعدتهم بمالك وجاهك ولسانك وكف أذاك عنهم فإن إذاية الجار سبب من أسباب عذاب النار. يروى أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال رسول الله هي فى النار.

﴿فاتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[1].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم وبهدى سيد المرسلين أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه الغفور الرحيم.

(1) سورة البقرة، آية: 281.



الفهرس

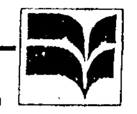
القسم الثاني

نماذج من عيون الخطب

حياة المؤلف في سطور

- ولد بالقيروان في 5 شعبان 1335/ 27 ماي 1917 .
- أكمل حفظ القرآن سنة 1931 .
- التحق بالزيتونة سنة 1932 .
- أحرز من الزيتونة على الشهادات التالية :
  * الاهلية سنة 1936 .
  * التحصيل في علم القراءات سنة 1938 .
  * التحصيل في العلوم سنة 1940 .
  * العالمية في القراءات سنة 1942 .
  * العالمية في الآداب العربية سنة 1944 .
- نجح في مناظرة الإجازة للتدريس بالزيتونة في نفس السنة 1944 .
- تحوّل للتدريس بالفرع الزيتوني في القيروان سنة 1952 .
- سمي خطيباً بجامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة 1955
- تولى إدارة الفرع الزيتوني بالقيروان سنة 1956 .
- انتدب لخطة مفتش للتربية الإسلامية سنة 1968 .
- انتدب لتدريس القراءات (دراية) بالكلية الزيتونية سنة 1977 .
- حاضر في الفقه وأصوله بالمركز الإسلامي في بروكسل سنتي 1982 و1983 .
- سمي عضواً بالمجلس الإسلامي الأعلى بتونس سنة 1988 .
- انتخب عضواً بمجلس النواب بتونس سنة 1989 .
- شارك في عدة ملتقيات ودورات لتدريب الأيمة والدعاة - بإشراف رابطة العالم الإسلامي - في اندونيسيا، وجزر القمر، وجزر المالديف، وكل من فرنسا، وبلجيكا، وهولاندا، وفي ندوات إسلامية بكل من مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

اشرفت على طبعه واخراجه



المؤسسة العربية للتوزيع - تونس

Entreprise Arabe de Diffusion_tunis

الادارة والتوزيع : 47، شارع طه حسين . منفلوري 1008 — 47, Av. Taha Hussein - Montfleury 1008 Tunis